سلوى بكر

وصف البلبل

رواية

سينا للنشر

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

مدونة ابو عبدو

ABU ABDO ALBAGL

الكتاب : وصف البلبل

رواية : سلوى بكر

الطبعة الأولى ١٩٩٣

جميع الحقوق محفوظة

الناشر : سينا للنشر

المدير المسؤول : راوية عبد العظيم

---

١٨ شارع ضريح سعد - القصر العيني - القاهرة
جمهورية مصر العربية - تليفون : ٢٠٢/٣٥٤٧١٧٨

الغلاف : عماد حليم

الإخراج الداخلي : إيناس حسني

الصف : سينا للنشر

وَصْفُ البُلْبُل

سلوى بكر

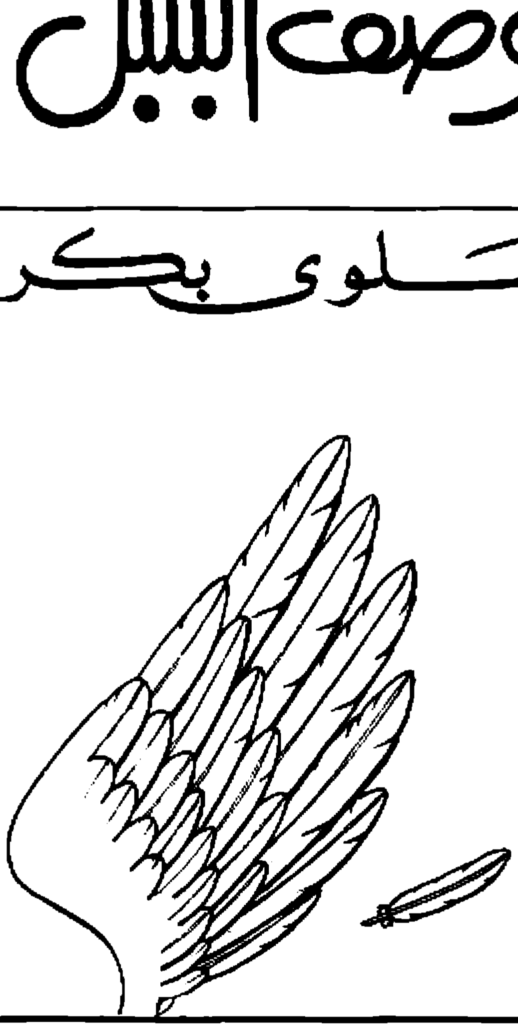

سينا للنشر

يَــوْمُ بَــار

١

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

ALBAGL

دخلَتْ مطعم الفندق لأول مرة ، ترتدي ثوبًا بلون النبيذ الداكن ، وشعرها الناعم الخروبي ملموم إلى الخلف ومعقود بشريط حريري أسود. جلست إلى جانب صالح ، ظهرها إلى الجدار ومشهد الحديقة يبدو كاملاً في عينيها عبر الباب الزجاجي الممتد طويلاً لحائط . كانت شجرتا الكينا بأوراقهما الكثيفة المستطيلة الخضراء تتمايلان بنعومة ولطف إذ يحركهما الهواء ، وتمرح عليهما عصافير وطيور لا تكف عن إرسال تغريد وصفير وزقزقات وشقشقات ، أما أسفل الجذعين البنيين الشاحبين ، فقد برزت زهرات "البانسيه" المخملية الناعمة تحوطهما في التفافات بديعة من اللون الأصفر الزاهي ، والبنفسجي الداكن ، والقرمزي الرصين ، ثم حنك السبع الغامض المثير ذو النتوءات الغريبة، تتارجح ألوانه بين الأحمر الباهت ، والبرتقالي الناري ، وما بينهما من أصفر كركمي ، وبصلي محيّر، ووردي شحيح .

كانت صالة المطعم تبدو كبيرة بالقياس إلى حجم الفندق الصغير وتعجّ بالنزلاء من عرب وأجانب ورواد يرتدون ملابس البلاد الوطنية .

شرع البعض في التهام الطعام ، بينما كان الآخرون يترقبون دورهم ، تعالت قهقهات وأصوات بكل اللغات لتختلط مع غناء قديم شهير لأم كلثوم مما جعل صالحًا منشرحًا ومستجيبًا لجو المرح المهيمن على المكان، فعلّق قائلاً وأصابعه تنقر نقرات خفيفة على طرف الطاولة تتسق وإيقاع لحن الأغنية :

– ألف رحمة تنزل على روحك يا أم كلثوم .. كنت موحدة العرب من الخليج إلى المحيط فعلاً .

كانت تفرش على حجرها منديلاً سماوي اللون يتناغم لونه وألوان الستائر الزرقاء الفاتحة وأثاث المطعم الجوزي الأنيق عندما جاء النادل فوضع أمامهما شرائح الخبز المقطّع في سلة صغيرة ، ثم صبّ الماء في كأسها، وهو يهمّ بالذهاب في حركة تتناسب و نادل في مطعم .

استوقفه صالح بحركة من يده ، رفع كوبًا زجاجيًا باليد الأخرى وهتف مبتسمًا :

– نسيتني يا شيخ .. حرام عليك !

ردّ النادل بكلام لم تفهمه ، وصبّ الماء متعجلاً وانسحب بالسرعة نفسها التي جاء بها .

هكذا قُدّر لها أن تراه لأول مرة من الخلف ، بعد أن دارت برأسها لتتابعه بنظراتها حتى اختفى خلف الباب الفاصل بين نهاية المطعم ومطبخ الفندق . قدٌّ نحيل ممشوق ، وشعر أسود متماوج لا يحجب القفا الظاهر ، من ياقة القميص ، أبيض ناعمًا يبرز رقبة طويلة مترفعة ، تعلو منكبين فسيحين يتسقان و لطف العود السمهريّ الشاب .

مدّت يدها إلى قطعة خبز وقضمتها ومضغت ملتذة ، ثم قالت لصالح وهي تبتلع الخبز وترفع السلة وتمدها له ليتناول منها قطعة :

– عيش شهي ، مخبوز على الأصول ، شمّ ! خميرته ممتازة ، والدقيق أبيض فُلّ ، والله الواحد يقدر يغمسه بحبة ملح ويشبع .

ابتسم صالح ابتسامته المبرزة للسمة الوحيدة المميزة الموروثة عنها : غمازة في خده الأيمن .. وردّ : البلد كلها جميلة ، والطبيعة رائعة ، وعمومًا ميزة البلاد الصغيرة تكون في الخدمات أساسًا . عندنا الرغيف لازم يبقى زفت طبعًا لأن الطلب عليه شديد والاستهلاك مستمر في النهار والليل . لأنهم يشمموه النار ويطلعوه بسرعة وهو مازال عجينة ، الحقيقة أن تعداد السكان في بلدنا زاد جدًا يا ماما.

عندئذ جاء النادل مرة أخرى ووضع أطباق المقبلات أمام الجالسين إلى الطاولة الأخرى المقابلة لطاولتهما : رجل بشعر أبيض تمامًا وبشرة محمرّة ، إلى جانبه آسيوية سمراء بعيون ضيقة وشعر حريري ، حجمها نصف حجمه تقريبًا.

استدارت هي مرة أخرى برأسها لتنظر إليه وهو يضع ما جاء به من أطباق. رأت وجهه كاملاً لأول مرة ، فهتف داخلها المهتز بنشوة مفاجئة :

– بسم الله ، ما شاء الله ، شاب جميل جدًا .

لم تحد ببصرها عن العينين الواسعتين اللتين تضمان الحدقتين الليليتين ، وعن الأنف المستقيم والفم الرقيق وهذا الخد الأسيل ! أعلنت لروحها إيمانها بالجمال مرة أخرى وانتابها شعور مبهم فأخرجت مشطًا من حقيبتها وسرّحت شعرها الذي لم يكن بحاجة إلى تسريح ومسّدته

بيدها ، ثم راحت تتطلع إلى مشهد الحديقة وتنهدت في ارتياح .

جاء الدكتور إبراهيم وزوجه وجلسا قبالتهما إلى المائدة ، وكانت قد تعرفت بهما قبل ذلك في المطار قبل إقلاع الطائرة من القاهرة . حاولت تذكّر اسم زوجة الدكتور لون جدوى .

أعاد صالح التعريف بالقادمين ، فكفّت عن قدحِ ذهنها لتذكر اسم الزوجة ، وراحت تتأملها ، وابنها يقول :

– الدكتور إبراهيم يا ماما ، ومدام نيللي ؛ طبعًا أنا عرّفتك بهما في المطار بسرعة ، لكن الدكتور ملك جراحات الحنجرة في مصر ، أستاذي وأستاذ الأساتذة ، يده تستحق اللف في حرير .

– ماماما . قهقه إبراهيم ، وابتسمت زوجه ابتسامة متحفظة ، ردت عليها أم صالح بأحسن منها حتى بانت غمازة خدها . ثم : شكرًا ، شكرًا يا صالح قالها الدكتور إبراهيم .

لم يقطع ذلك استرسالها في تأمل زوجة الدكتور . لاحظت لون شعرها الأحمر الناري وحاجبيها الأسودين المزججين بقلم بني فاتح لم ينجح في إخفاء اللون الأصلي للشعيرات الداكنة ، ثم قميصها الموصلين الكحلي وعقد اللؤلؤ المتدلي صفين على صدرها . بدت المرأة في نظرها أنيقة بالمقارنة مع زوجها الذي كان هندامه غير منسجم بالقميص الرمادي والسروال الأسود وربطة العنق الخضراء خضرة البرسيم وقد تدلت على صدره بلا معنى أو وظيفة .

استأنف صالح مهمة التعريف فأشار إلى أمه قائلاً :

– ماما يا دكتور إبراهيم أعظم وأحنّ أم في الدنيا ، أولاً ، ثم مديرة

علاقات عامة في شركة المعادن الثمينة ، ثانيًا ، وهبت من حياتها عشرين سنة بالتمام والكمال للعبد لله بعد وفاة بابا ، الله يرحمه ، أرملة في الحقيقة منذ نعومة أظافرها .

ضحك صالح لدعابته عن أمه وراح يربت عليها ، وكانت هي قد شعرت ببعض الحرج والضيق لأنها لا تحبِّذ الحديث في قصة ترملها ، لكن هاهي ذي تدخل في بؤرة القصة تمامًا عندما قالت زوجة الدكتور إبراهيم بدهشة :

- مستحيل ! واضح أنك تزوجت صغيرة جدًا ، وترملت بسرعة، سبحان الله!

كلام سمعته الأرملة مرات ومرات . التفاصيل حكاها ابنها باختصار وهو يقطع اللحم في طبقه بالسكين :

- ماما زفّوها لبابا وعمرها خمس عشرة سنة ، وولدتني بعد سنة واحدة من الزفاف ، لكن بابا توفي بعد سنتين من تاريخ ولادتي ، وأنا لا أتذكره على الإطلاق ، أو أتذكر وجوده معنا في البيت .

- لا حول ولا قوة إلا بالله . الدكتور إبراهيم .

- ياروحي . زوجته بعد التصعب .

لم تنطق المرأة الأم الأرملة موضوع التأسي بأية كلمة ، وكأن الحديث يدور عن امرأة أخرى في فيلم من الأفلام ، واكتفت بالتبسم ابتسامة باهتة تعليقًا على الجميع الذين لم يمنعهم الكلام عن الإقبال على طعامهم بشهية وحماس .

وهكذا أثناء الغداء لاك الجميع مع الإبن القصة الشهيرة للأرملة

هاجر صفوت التي تُسأل عادة من الآخرين : لماذا لم تتزوجي مرة أخرى بعد وفاة زوجك ؟ وكيف تحملت الحياة وحيدة بلا رجل طيلة سنوات شبابك حتى الآن ؟! فيكون عليها أن تجيب الإجابة التاريخية التي حفظتها عن ظهر قلب منذ زمن طويل لكثرة ما قالتها وريددتها :

– بصراحة خفت من عدم التوفيق بين حبي لابني ، وحبي لإنسان آخر، خفت أن أتعس ابني ، وأتعس الشخص الآخر ، وأبقى في الوسط حيرانة ، وموزعة بين الاثنين ، يا الله كل شيء قسمة ونصيب .

لكن أحداً لا يعرف حقيقة عزوفها عن الزواج غير صالح ، الحقيقة التي تمنّت قولها لكل الناس وأن يعرفها الجميع ، لكنها لم تستطع البوح بها أبداً ، رغم عذابها المقيم ، والجحيم الذي عاشته ومازالت تعيشه بسبب هذه الحقيقة ، لدرجة أنها كرهت أمها وأباها والناس أجمعين ، بل كرهت روحها والحياة كلها ذات يوم من الأيام .

هل تقول للناس أنها سُرِقت ، خُطِفت ، ابتزّت ، استُغفلت ، بيعت وهي زهرة ناضرة بأبخس الأثمان ؟! ؛ هل تقول لهم إنها زُفّت إلى رجل ميت ، إلى جثّة ترتدي الأكفان ؟! ؛ هل تخبرهم أنها لم تكن أكثر من أرض جرى وطؤها وحرثها وبذرها لتمنح الحياة ؟! ماذا تقول وهي تشعر في كل لحظة بالعار ، وبأنها مدنّسة ؟ امرأة جرى اغتصابها منذ زمن بعيد ، اغتصاب روحها قبل اغتصاب جسدها ، امرأة جرى اختزالها واختصارها وتلخيصها وتقليصها في تعريف بسيط : مهبل للإمتاع ورحم للإنجاب ؟!.

كان النادل يروح ويجيء حاملاً أكوابه وأطباقه ولزوم ما يلزم لخدمة

النزلاء ، بينما هي تتأمله بنظراتها ، تتمعن في العينين والشفتين والوجنتين ، وبقية القسمات .

فجأة وجدت نفسها تتذكر جدتها وهي تجلس في حجرتها ذات السقف العالي في بيتهم القديم تتوسط حاشيتها الخاصة ، التي حشتها بما جمعته من شعر رأسها المتساقط ، والذي كانت تستحرم رميه دائمًا وتقول إنه يجب تكريمه فهو جزء من أكرم خلق الله ولا يجب رميه أو الإلقاء به بين الوساخات . تجسدت في عينيها صورة الجدة وهي تمسّد شعرها الرمادي الغزير الذي لم يعرف المقص طريقًا إليه منذ ولادتها ، وتفرده على ساقها حتى يصل إلى مشط قدمها ، فتلفه على إصبعها الكبير حتى تتحكم في تمشيطه ويتيسر لها تسليكه ، ثم تأخذ في سرد حكاية يوسف الصديق وما كان من أمر "زليخة" امرأة العزيز معه ، وشأنها مع صاحباتها عندما لُمنها على غرامها وولعها بيوسف الصغير، إذ أدخلته عليهن فجأة وكن يأكلن تفاحًا ويسخرن من افتتانها بالشاب الوافد الغريب ، فما كان إلا أن أخذتهن الصيحة من وقع جماله ورحن يقطعن بالمديّ أصابعهن وراحاتهن بدلاً من التفاحات دون أن يشعرن ، وهن مأخوذات مبهوتات، مبهورات بالطلعة البهية للكوكب الدريّ المطل عليهن . وألجمتهن المفاجأة ، فسكتن عن الكلام وكأن مسًا من السحر قد أصابهن ، فلما رأتهن امرأة العزيز على هذي الحال لم تشمت فيهن أو تلحف عليهن بالسؤال ، بل تنهدت وزفرت بحرارة وهي تقول : ألم أحكِ وأقل لكن يا عزيزاتي ولم تصدقنني؟! الآن أدركتن كم كنت معذورة ، مكروبة ، مسلوبة ، تعسة ، مرتبكة ، مفتونة بغرامه وهيامه ، فأجابتها

الصاحبات وقد اعتراهن الخجل والكسوف : آمنا .. ونعم بالله .

أما هي ، هاجر الطفلة الصغيرة التي كانتها ذات يوم فكانت تتساءل بدهشة وهي تضحك لحكاية جدتها عن يوسف :

– هل صحيح يا نينة أن كل واحدة قطعت يدها ونزل الدم منها لما شافت سيدنا يوسف ؟! شيء غريب فعلاً !

لكن الآن في هذه اللحظات ، لو كان في يدها تفاحة ، لقطعت راحتها بدلاً منها ؛ إنها مبهورة ، مأخوذة ، مضطربة كصاحبات امرأة العزيز ، فثمت شيء يفتنها في وجه هذا الشاب ، شيء يمسها ويلامس روحها ، ربما البراءة والصدق المطلّان من عينيه ، وربما هذا التعبير الغريب المترفّع الأشبه بالاحتجاج ، أو الصراخ الصامت المكتوم ، أو الغضب ، أو الضيق. لا تدري لكنها على أية حال تشعر أنها تبالغ بالتمعن في النادل ، ربما لضيقها وضجرها من الحديث عن حياتها وترملها ، أو لشعورها الغامض بعدم الارتياح لزوجة الدكتور إبراهيم ، رغم أنها لم تتعرف عليها إلا منذ فترة قليلة لا تكفي لتكوين فكرة صحيحة عنها، لكن ربما يكون سبب عدم ارتياحها ، هو طريقة المرأة في مضغ الأكل ، تلك الطريقة التي تجعل فكّها يبدو كسلحفاة كئيبة ، أو حركة شفتيها الغريبة أثناء الكلام كما لو كانت على وشك البصق . تمنّت انتهاء الطعام سريعًا والذهاب إلى غرفتها ، لكنها فكرت فيما بعد ذلك .. في ذهابها مع هذه المرأة لتتجولا بالمدينة معًا ، بينما يذهب ابنها مع الدكتور إبراهيم إلى المؤتمر وهو سبب حضورهم جميعًا إلى هذا البلد ، وفي لقائهم مرة أخرى بعد ذلك وقت العشاء . تمنّت أن تظلّ وحيدة ، أو أن تذهب منفردة

إلي المدينة لكن ابنها زاد من وطأة الأمر ، وقطع عليها خط الرجعة ، عندما قال :

- ماما .. لا داعي لانتظارنا على العشاء لو تأخرنا ؛ كلي مع مدام نيللي .

فقالت وهي تتأهب لمغادرة المكان ، وقد أسقط في يدها ، ولم تستطع التهرب من نيللي :

- حاضر .. حاضر .

٢

هاجر صفوت ، المرأة الخواء التي هي أنا ، عندما تلقي برأسها على الوسادة لا تفكر في أي هم في حياتها ماعدا صالحًا ، ليس لأنه الرجل الوحيد في حياتها ، ولا لأنه الإنسان الأهم في هذه الحياة فقط ، ولكن لأنها تشعر دومًا بأن وجودها بلا معنى ، فهي ميتة منذ زمن بعيد ، ميتة كما لو كانت لم تولد في الأصل . إن وجودي واستمراري في الحياة يتمحور حول مسائل من نوع : هل أكل صالح جيدًا وكما يجب ؟ هل نام هذه الليلة مستريحًا ؟ آه .. لو تأخر عن موعده نصف ساعة ذات يوم ! تأكلني نيران القلق والحيرة والخوف . أنا أشبه تلك المرأة التي يُحكى عنها في قصة من القصص ، والتي كانت لا تضحك ولا تبتسم أبدًا ، بل كانت متجهمة طيلة الوقت ، وكانت تعيش وحيدة لا أقارب لها أو أصحاب، اللهم إلا طفل صغير تربيه وتحنو عليه ، وفي أحد الأيام فوجيء الناس بها تفتح شبّاكها وتضحك ، فلما سألوها عرفوا أن الطفل قد مات .

ثمانية وعشرون عامًا ، ولا كائن في حياتي غير صالح ، لا رجل في

قلبي أو في عقلي غير صالح ، لقد حاول أخرون احتلال موقع والدخول إلى حياتي بجانبه ، وحاولت أنا مرة إشراك آخر لكن بلا جدوى ، فأنا لا أشرك به أحداً . حاول أهلي تزويجي ذات يوم بعد وفاة زوجي بسنوات قليلة لكني رفضت بشدّة لدرجة التهديد بالانتحار كنت وقتها في الثالثة والعشرين من عمري تقريباً ، وبعد جدال وصراع معهم استقر الأمر على أن تلازمني "مال" خادمة جدّتي السوداء التي كان جدّها عبداً لوالد جدّتي، وهكذا ظلت "مال" معي في البيت حتى لا أكون وحيدة وطفلي الصغير بلا ثالث أو حارس .

بعد دخول صالح المدرسة شعرت بوحشة ووحدة طاغية ، وحتى لا أنهار قررت العمل ، إذ أن الوقت الفارغ قد أخذ في افتراسي شيئاً فشيئاً ، وأنا أدور بلا هدف بين حجرات الشقة الفسيحة ، تعتصرني ذكريات زواج مقيت ، ما كاد يبدأ حتى انتهى أسوأ نهاية يمكن أن تعيشها شابة صغيرة لم يكتمل نضجها بعد . تركت البيت لأعمل سكرتيرة في الشركة العامة للمعادن النفيسة ، سكرتيرة للمدير الإداري أولاً ، ثم سكرتيرة للمدير التجاري بعد ذلك ، ونظراً لفرنسيتي الممتازة ، وإنجليزيتي العرجاء ، إضافة إلى عملي المتقن ومظهري المناسب ، حزت بعد خمسة عشر عاماً من العمل والتنقل في وظائف إدارية مختلفة على وظيفة مديرة العلاقات العامة في الشركة .

خلال تلك السنوات الطويلة الممتدة وضعت سداً منيعاً بيني وبين الرجال ، ولكن .. لا .. لم أكن أنا التي وضعت هذا السدّ وذلك الجدار الرهيب العالي الذي حال بيني وبين الرجال ، لكنها تلك الأوراق المرعبة ،

التي عثرت عليها ذات يوم بالصدفة بينما كنت افتّش في أدراج مكتب زوجي بعد وفاته بشهور . تلك الأوراق التي تحولت بالنسبة لي إلى تعويذة سحرية شريرة ، وطلسم من طلاسم الجن تركه لي الزوج الميت ، ليحول بيني وبين أي رجل آخر طوال حياتي كلها .

بعد سنة من تعييني في شركة المعادن ، عبّر المدير الإداري ، الذي كنت أعمل سكرتيرة له آنذاك ، عن مشاعره العاطفية تجاهي . كان رجلاً ينتمي إلى الأرستقراطية القديمة ، درس إدارة الأعمال في "كامبريدج"، وكان والده أحد كبار المساهمين في شركة المعادن النفيسة قبل تأميمها ، وقد ظل مديري يتعامل مع نشاط الشركة بعدم جدّية واستخفاف ، ويعبر عن رأيه في الحياة الجديدة بعد الثورة وعبد الناصر طوال الوقت ، لم يكن حاقدًا على الثورة ولا متعاطفًا مع عبد الناصر ، بل بدا لي شامتًا أبديًا في الطبقات القديمة المنهارة، ويرى أنها بعد خروج الإنجليز من مصر أصبحت كالقطط المدللة البائسة التي تركها أصحابها في الشوارع وغادروا إلى مكان غير معلوم . كنت أجده رجلاً مهذبًا راقيًا في سلوكه معي ومع جميع العاملين في الشركة رغم ما يشاع عنه من أنّه سكير لا يفارق مائدة القمار كل ليلة ، على أية حال لم يكن هو يخفي ذلك وكان عندما يزوره بعض الخبراء الأجانب يخرج كؤوسًا وزجاجة خمر من دولاب مكتبه ويحتسي معهم كأسًا .

بينما كنت أناوله بعض الملفات ذات مرة علق مديري المهذب على ملابسي ، وقال إنها تلائم عجوزًا في الستين ، أو راهبة في دير ، ولا تليق بشابة لم تبلغ الثلاثين بعد ، وافقته واكتفيت بالابتسام ، ولما سافر

إلى فرنسا بعد ذلك في مأمورية عمل ، أحضر لي قميصاً من الحرير الوردي ، لم أرتده أبداً ، ورددت هديته بعد فترة في صورة قلم ذهبي ، بمناسبة عيد ميلاده ، الذي احتفل به جميع العاملين في الإدارة .

ذات يوم ، عندما كنت أهم بالخروج من مكتبه ، بعد توقيعه على طلبي لإجازة سنوية ، اقترب مني فجأة ثم أمسكني من ذراعي وهو يتساءل : لماذا أبالغ في تمثيل دور الأرملة الحزينة والأم المتفانية ؟ وقال إنه يرى أن الدور لا يليق بي كما أتصور ، وأنه لن يلاحقني إذا كنت لا أرغب في إقامة علاقة معه ، وأنني يجب أن أكون واضحة محددة . كدت أضعف أمام كلماته الصريحة وجرأته التي لم تقلل في نظري من رقته وتهذيبه ورقيّ سلوكه بالقياس لمعظم الرجال الذين صادفتهم في شركة المعادن ، فأنا لم ألمحه مرة يهرش بين فخذيه وهو يسير مثلما يفعل بعضهم ، ولم أضبطه يختلس في أي وقت من الأوقات النظرات إلى صدري أو ساقي ، ولكن ألم يكن زوجي مهذباً وراقياً في مسلكه أيضاً ، ألم يكن رقيقاً في تعامله معي بالقياس لتعامل الرجال مع زوجاتهم ؟ تذكرت ذلك بسرعة ، وأنا أشكر مديري على اهتمامه بي ، وأعتذر عن ارتباطي به في علاقة خاصة ، وفي نهاية الأسبوع الذي جرى فيه ذلك طلبت نقلي إلى إدارة أخرى بالشركة فتفهّم أسبابي وأبدى لطفاً يليق بشخصيته الطيبة ، وتمّ نقلي دون إبطاء إلى الإدارة المالية بالشركة لأعمل سكرتيرة لمديرها أيضاً. كان المدير الجديد من كبار موظفي الإدارة المالية فيما مضى ، ثم أصبح بديلاً لنظيره المتوفّى ، الذي سبقه في المركز ذاته ، لكن رئيسي الجديد اختلف سلوكه عن سلوكِ الموظف

القديم الذي كنت أعرفه من قبل، إذ سرعان ما تقمّص شخصية الجالس على أكبر كرسي في الإدارة ، وأبرز الوجه القبيح لموظف تسيطر عليه عقد تاريخية ، بسبب بدء حياته الوظيفية من الصفر وصراعه ونضاله المستمر في سبيل ارتقاء السلّم الوظيفي درجة درجة حتى وصوله إلى النهاية . كان يرغب في تعويض ذاته عن كل ما فاتها من مباهج الحياة التي تخلّى عنها في الماضي لأجل الصعود والارتقاء ؛ والذي كان يبدو لي حييًا خجولاً ، إذا ما التقيته صدفة في أحد ممرات الشركة في الزمن الماضي ، اتضحت وتكشفت لي يومًا بعد آخر مدى وقاحته عند العمل معه في الإدارة المالية ، إذ كان دائم التفرس في جسدي ، كلّما ناولته بعض الأوراق أو ناقشته في أمر من الأمور ، ثم لاحظت أنه يطلبني كثيرًا في مكتبه دونما ضرورة أو حاجة تستدعي ذلك . كنت بالنسبة له من الطبقة الكابسة على أنفاس طبقته ، تربّيت في مدارس أولاد الذوات، وهو خرّيج مدارس الحكومة المجانيّة ، ورطانتي الفرنسية كانت تعادل رطانة أمّه بالصعيديّة ، وسرعان ما اختصر الطريق ذات صباح بينما كنت أضع بين يديه كشوف حوافز الموظفين والعمل الإضافي ، وأعلن عن رغبته في الزواج مني ، واستعداده لقبول كل طلباتي ، حتى لو وصل الأمر إلى تطليق زوجته أمّ عياله . بالمقابل ، كنت مستعدة لتطليق شركة المعادن بالكامل ، لولزم الأمر ، حتى لا أرى وجهه أبدًا ، فهو شخص فجّ لزج ، له وجه مستفزّ إلى أقصى الحدود . بحاجبيه الكثيفين وعينيه الواسعتين الوقحتين وقاحة تلائم قوادًا من قوادي علب الليل أكثر مما تناسب مديرًا ماليًا . تذكرت وهو يطلب الزواج منّي كيف كان يحاول

لمسي دونما سبب مقبول أثناء حديثه معي ، كيف كان يميل عليّ وأنا جالسة إلى مكتبي ، ليملي عليّ خطابًا بخصوص العمل لأطبعه بالآلة الكاتبة. اعتذرت له بسرعة عن الزواج متأنقة ، دونما إبداء أي سبب من الأسباب ، ثم طلبت إجازة طويلة عدت بعدها إلى الشركة لأجد مشكلتي قد حلّت حلاً سينمائيًا ، إذ جرى إيقاف مديري السخيف عن العمل للتحقيق معه بسبب مخالفاته المالية في الإدارة .

تقدم كثيرون للزواج من ست الحسن والجمال وربّة الصون والعفاف التي هي أنا ، لكن لا رجل ، بل لا أحد استطاع إقناعي بالزواج مرة أخرى . كنت في الحقيقة أشبع غروري كلما جرت محاولة من هذه المحاولات دون شك ، إذ أجدني كلما مرّ الوقت مازلت مرغوبة مقبولة من الجنس الآخر رغم يقيني أنني لست من الجميلات ، بل لا أتجاوز تقييم مقبولة الشكل ؛ لكن تكرار تجربة العلاقة مع رجل آخر كانت بمثابة المستحيل بالنسبة لي . للحقيقة كدت أميل ذات مرة لزميل لي في الشركة، اعتقل في موجة من الاعتقالات التي تحدث في البلد بين الحين والحين ، وقضى في المعتقل حوالي خمس سنوات ، وعندما استأنف العمل مرة أخرى في قسم العلاقات العامة ، حيث كنت أعمل آنذاك ، شعرت تجاهه بتعاطف شديد غذّاه سلوكه الجادّ معي ومع كل الموظفات الأخريات ، وشيئًا فشيئًا بدأت تنشأ بيننا علاقة صداقة حميمة رحت خلالها أكوّن له جمعيّات فلوس لأساعده على مواجهة حياته المالية الصعبة ، فأجمع مبالغ صغيرة محددة من رواتب العاملين والعاملات في الشركة عند أوّل كل شهر كما جرت العادة ، وعندما يتجمّع المبلغ ويكتمل

أعطيها لأحد المساهمين وفقًا لأولويات الضرورة والحاجة ، وعادة ما كنت أعطيها لزميلي هذا في البداية فتتحقق له سيولة نقدية معقولة تتيح له شراء بعض الأثاث أو الأدوات المنزلية اللازمة . أما من ناحيته فطالما شجعني على القراءة ، ومدّني بكتب وروايات جميلة أقتل بها ساعات ليلي الممتد ، بعد عودتي للبيت والفراغ من شئونه والاهتمام بصالح ، وبسبب هذا التشجيع والاهتمام، عرفت شخصيات لا أنساها أبدًا ، كأنَّاكارنينا، ومدام بوفاري ، ثم بدأ يعطيني كتبًا عن تاريخ مصر ، تختلف كثيرًا عن كتب التاريخ التي تعلمت منها في المدرسة ، وأعطاني كتابًا عن العائلة والأسرة قال إنّه لعالم شيوعي إنجليزي كبير ولابد أن أقرأه ، والحقيقة أنني حاولت قراءته ، لكنني لم أستطع استيعابه ومواصلته حتى النهاية.

كنت مبهورة بزميلي تمامًا ، فهو مختلف عن كل الرجال الآخرين حولي، مختلف في مسلكه وأفكاره وآرائه ، وقادر على تحليل كل ما يدور من أحداث داخل الشركة وفي المجتمع بطريقة مختلفة تمامًا عما يراه الناس، فكان أن توطدت علاقتنا ورحت أزوره في بيته ، وأجلس مع أخته المطلقة وأولادها لنتناول العشاء جميعًا في جو حميمي جميل . لاحظت أن أخته تعامله بنوع من التبجيل، ولا تتوانى عن خدمته هي وأولادها ، وفي أوقات كثيرة كانت تتركنا بمفردنا في حجرة المعيشة بناء على طلبه، وتمضي لشئونها وشئون بيتها بعد أن تعدّ لنا الشاي أو الطعام ، فندخّن معًا ونتحدث عن مشكلات العمل بشركة المعادن ، ومتاعبي مع صالح عندما لا يستذكر دروسه جيدًا ، أو خلافاتي مع عمّه ، الذي لا يريد إعطائي وإياه نصيبنا من ميراث أخيه ، ثم أخذ زميلي يصارحني

بحبه وعواطفه ، ورغبته في الارتباط بي ، فلم أوقفه وتركته يعبّر عن مشاعره تجاهي وأنا أقول لنفسي : فلتعط روحك فرصة أخرى يا بنت ، ولتجرّبي العلاقة مع الرجل الآخر ، الرجل المختلف الذي لا يشبه أيًا من الرجال حولك . غير أن ذلك لم يكن إلا صوت عقلي الحائر ، لم يكن صوت قلبي أبدًا ، ولا رغبتي الأصيلة في عدم معاودة الارتباط برجل .

ذات يوم جاءني الصديق ، الزميل ، مشروع الحبيب منهارًا ، إذ اكتشف أن أخته على علاقة بجار لهم في الشارع وأنها تريد الزواج منه. بدا لي غاضبًا عصبيًا إلى درجةٍ أصابتني بالدهشة والصدمة ، إذ عرفته هادئًا رزينًا صبورًا ، يحكّم العقل في أصغر الأمور قبل أكبرها ، ويصعب استفزازه أو استثارته ، ووصلت صدمتي منتهاها عندما علمت أنه ضربها ومنعها منعًا باتًا من مغادرة البيت إلا بإذنه ، رحت أتصوّره وهو يضرب أم الأولاد الثلاثة التي أعرفها ، المرأة الوديعة ذات الطرحة والجلباب التي طالما أعدّت لنا الطعام وقدّمت الشاي والقهوة وهي تقول لي بأدب وودّ : "تفضلي يا أستاذة" ، ثم تنسحب من الغرفة لتتركنا وشأننا نتحادث ونتحاور بعد أن تغلق الباب علينا لئلا يزعجنا أولادها بشغبهم وضجيجهم الطفولي . سألته عن تسميته للذي بيننا ، ولماذا يبيحه لنفسه ولي ولا يبيحه لأخته ، قدّم إجابات كثيرة من نوع : نحن مختلفان عنها فهي ليست متعلمة ، ثم إنها مطلقة وأمّ ، ولابدّ أن الرجل يحاول التغرير بها . ثمّ أضاف أنهما من عائلة فلاحيّة أخلاقها لا تقبل أوضاعًا من هذا النوع .. ثمّ ..

وجدتني أنسحب مصدومة من هذه العلاقة التي سرعان ما ندمت على

محاولتي الدخول فيها ، قارنتها بزواجي الذي مضى ، زواجي الفاشل بسب الكذب لا بسبب الموت واكتشفت كم كنت غبية إذ عاودت الرهان على رجل مرة أخرى .

وضعت رأسي على الوسادة لأقيل بعد الغداء قليلاً ، بينما الأفكار تجول بداخلي ، وعيني ترتاح لمرأى تدرجات الأزرق وتلاوينه على الستائر وسجّاد الأرضيّة وأغطية الفراش . فكرت في جولة الساعة الخامسة في المدينة التي سأقوم بها مع زوجة الدكتور إبراهيم لنرى معالم البلد ونتسوق بعض الأشياء . لا شيء في رأسي غير الماضي القديم ، شريط الذكريات المستعاد ، كلما وضعت رأسي على الوسادة لأنام ، والممتزج بهواجسي وهمومي وأحلامي عن صالح ومستقبله ودراساته وأبحاثه عن أورام الحلق التي سيشارك بها في المؤتمر حمدت الله لأنني حسمت ترددي وجئت مع صالح ، فأنا لم أسافر خارج حدود الوطن من قبل ! كنت خائفة وأحسب حساب تكاليف السفر الباهظة ، لكن السفر في الحقيقة جميل ، ويستحق أن يبذل الإنسان المال لأجله ، وقد تصورت أني سأكون عبئًا على صالح أثناء هذه الرحلة ، ولكن الأمور تبدو ميسّرة في هذا البلد والحمد لله ويمكنني الاعتماد على نفسي في الخروج والتّجوّل، وأظن أنني سأقوم بذلك بمفردي فيما بعد دون الحاجة لاصطحاب زوجة الدكتور إبراهيم .

قبل استسلامي للنعاس وهيمنة النوم تلاحقت في مخيلتي الصور : مطار القاهرة ، الطائرة ومضيفتها ذات الأسنان المفلّجة وهي تبتسم ، شوارع المدينة البادية من نافذة السيارة ، مبنى الفندق بطرازه العربي

الجميل ، الحديقة ونافورة الماء عند مدخلها ، شجرتا الكينا والطيور عليها، "البانسيه" "حنك السبع" ، قميص نيللي "الشيفون" وشعرها الأحمر، وجه نادل المطعم ، يا إلهي! شريط الصور يتوقف عند ذلك الوجه؛ جميل ، هادىء ، شابٌ ، أطبع قبلة حارة عليه ، مستحيل ! ما هذا يابنت؟! ، أتقلّب على جانبي في الفراش محتجّة ، لكن ها أنا ذا أعود لأطبع قبلة جديدة أحرّ من الأولى على الخدّ الآخر بينما عيناي مغمضتان، أنهض من فراشي بعصبية ، افتح النافذة قليلاً متذرّعة بضرورة تجديد هواء الغرفة ، ثم أعود إلى السرير لأكتشف كذبي بمجرد الاستلقاء عليه من جديد ، فأنهض وأغلق النافذة إذ تلسعني نسمة باردة، أحاول النوم لكن وجهه يأتي ، وجهه لا يغيب ، بالتأكيد نمت بعد ذلك ، لأني أفقت بعد حوالي نصف الساعة وسرعان ما تذكرت ما جاءني في المنام من صور : "أجري وأنا أحمل بيدي الأوراق المفاجأة التي عثرت عليها بدرج مكتب زوجي بعد وفاته ، والتي كان يخفيها عني، أحاول تمزيقها بسرعة ، لكنه يطاردني داخل ممر ضيق طويل بلا نهاية وأنا أجري مرتعبة منه ، تتلاحق أنفاسي ويأخذني اللهاث وسرعان ما يهدّني الإنهاك وأصبح على حافة الانهيار، يدركني ويخطف الأوراق مني، ويضربني بيديه ثم يركلني بقدمه لأسقط على الأرض صارخة مبتئسة طالبة الموت والفناء ، عندئذ يشتمني ويتهمني بالسقوط وينعتني بأحط الألفاظ ، لكني أنهض ، أقاوم ، أهاجمه بسرعة منتزعة الأوراق منه مرة أخرى وأسارع بتمزيقها ، فيأخذ في القهقهة ساخرًا ، ويعلن أن لديه غيرها ، مثلها تمامًا" .

انقبضت روحي وأنا أتذكر ملامح وجه زوجي ، الصرامة تقبع في عينيه ، شفتيه الرفيعتين ، وأنفه المقوس الحادّ ، ثم بشرته المصفرّة ونظّارته السميكة ، لم أحب ملامحه أبداً ، رغم أن كثيراً من النساء كن يعجبن به ويعتبرنني من المحظوظات إذ تزوجت برجل مثله : صيدلي ، ميسور ، وسيم ، من عائلة معروفة في إحدى محافظات الدلتا ، أما أنا فلست إلا ابنة موظف محدود الدخل ، لا أحمل سوى شهادة الثانوية الفرنسية .

شعرت بضيق في صدري وتسارع في أنفاسي ، مثلما يحدث لي عادة بعد الإفاقة من هذا الكابوس الكئيب ، عاودتني مجدداً فكرة الذهاب إلى طبيب نفسي ليعالجني وهذا ما كنت أفكر به بعد كل مرة يداهمني فيها هذا الكابوس الذي يتكرر دائماً بالأحداث نفسها وبالنهاية ذاتها ، لكني متيقنة أنني لن أذهب إلى أي طبيب نفسي ، ربما لأني كسولة ، أو لكوني أخاف البوح بما في داخلي أمام أي كائن كان ، وربما لأني لا أثق في الأطباء النفسيين وأظن أن معظمهم مرضى أحوج إلى العلاج من أولئك المترددين عليهم . حاولت تلهية نفسي بأغنية لتزول كآبتي وأبتهج قليلاً ، لكن الذاكرة لم تسعفني بأغنية مناسبة فزفرت بشدة وأزحت الغطاء بعيداً بعد أن قررت دخول الحمام للهرب من همي وضيقي والانتعاش بالماء الدافيء .

رحت أخلع ملابسي حتى تعرّيت تماماً ، وعندما هممت بفتح الماء فوجئت بصورتي منطبعة بالكامل على المرآة الكبيرة المثبتة إلى جانب حوض الاستحمام، أُخِذْتُ للحظة ، فقد كانت المرّة الأولى التي أرى فيها

نفسي عارية منذ زمن بعيد : جسدي ممتلىء قليلاً ، لكن نهداي صغيران كنهدي مراهقة ، عانتي ذات شعر خفيف فاتح ، يعلوها بطني المترهل قليلاً ، والذي يحمل ندبة متخلفة عن العملية القيصرية التي أجريت لي وقت ولادتي لصالح ، ثم كتفاي اللذان كان زوجي يرى أنهما أجمل ما في جسدي ، وشعري يلامسهما بالكاد .

شعرت بلذة غريبة لمرأى هذا الجسد كاملاً ، واعترتني نشوة غامضة فأدرت رأسي محاولة النظر إلى مؤخرتي وفخذيّ المشدودين وتأملهم في المرآة ، طاولت عنقي لأعلى وحاصرت بيديّ خصري فوجدته ضيقًا واضح الحدود ، تنهدت برضا ، ومررت بأناملي على وجهي مرتاحة لملمس جلدي ، فلما اصطدمت نظراتي بنظراتي المطلّة من المرآة اعتراني خجل ، وتعوذت بالله من الشيطان الرجيم ، واندفعت بكاملي تحت رشاش الماء بعد أن فتحت الصنبور بسرعة .

لكن يا إلهي ، ها هي ذي صورته مرة أخرى تعاودني وتملأ عيني المغمضتين تفاديًا لحرقة الصابون ، كان يضغط بأسنانه على شفته السفلى قليلاً وزوجة الدكتور إبراهيم تسأله إحضار بعض الليمون لتضيفه إلى طبق حسائها .

بعد خروجي من الحمام ، ارتديت ثوبي البنفسجي الفاتح المصنوع من "الجرسيه" القطن ، عقصت شعري إلى الخلف كما أفعل دائمًا ، وكحلت عينيّ بالقلم الأسود ، وطليت شفتيّ بلون ورديّ هادىء لا يلحظ على الأغلب . ارتحت لمنظري في المرآة ، إذ بدا وجهي لا يخلو من حيوية ونضارة ، وداخلني شعور بالرضا عن نفسي .

كنت قد بدأت أستعيد روحي وأحسُّ البهجة والانتعاش بعد الحمّام اللذيذ ، تذكرت آخر أغنية علقت بذهني عند مغادرة أرض الوطن في الصباح ، رحت أترنّم بها واستعيد صوت المطربة "أحلام" التي تغنيها فحننت إلى مصر وتنهدت وأنا أتعطّر وأضع قدمّي في حذاء مريح بكعب منخفض ، ثم نزلت إلى صالة الاستقبال في الفندق حيث تواعدت مع نيللي على اللقاء ، فوجدتها تنتظرني وبيديها شُغل" تريكو" ، وما أن رأتني حتى هتفت :

- ياه .. شكلك في منتهى الجمال ، واضح أنك نمت نومة طويلة .

ابتسمت لملاحظتها المجاملة وقلت :

- فعلاً ، نمست وعَسّلت بعض الشيء ، لكن الحمّام نشّطني جداً .

لمّت التريكو الذي بيديها وقالت :

- قبل السفر بدأت أشتغل بلوزة لسامية ، قلت أخلص منها في الرحلة وأسلّي روحي .

كان الخيط بلون بصلي فاتح من الحرير "الميرسيرزيه" ، وكان ما نسجته نيللي بالإبر يُشكّل زخارف على هيئة ريش الطاووس ، تأملته بإعجاب وقلت لها :

- رائع .. أنت ممتازة فعلاً . أنا لا أصبر على شغل سطر واحد من التريكو. أشغال الخياطة والإبرة ، تخلّي روحي في مناخيري .

ابتسمت نيللي في زهو وهي تتأمل شغلها وتتحسسه بيديها وقالت :

- الأشغال محتاجة إلى الصبر والبال الطويل ، يظهر أن خُلقك ضيق.

ثم أعلنت أننا سنذهب إلى وسط المدينة سيراً على الأقدام ، وفقًا لنصيحة موظف الاستقبال في الفندق ، الذي أخبرها أن وسط المدينة لا يبعد عن محل إقامتنا إلا مسافة يسيرة لا تحتاج إلى أكثر من عدة دقائق. وافقت بحماس على المشي لشعوري بالحاجة إلى تنشيط جسدي وتحريك دمي ، وشمّ قليل من الهواء المنعش الرطيب .

تجولنا حوالي ساعتين في المدينة رائعة الأصالة ، استوقفني منظر الأبنية والبيوت بطابعها المعماري العربي القديم ، والحدائق المنسقة بخضرتها العازفة على كل درجات الأخضر تصافح البصر أينما تولى . توقفت نيللي مرات أمام محلات الملابس الأنيقة والخياطة الراقية وكانت تردد بين الفينة والأخرى :

– والله كأن الإنسان في روما أو باريس ، أذواق ممتازة وتشطيب من الدرجة الأولى ، يا سلام !.

تعبنا من اللف والدوران فأقنعنا نفسينا بالجلوس في مقهى للاستراحة ، ودخلنا أول محلّ قابلناه ، وطلبنا شيكولاتة مثلجة .

قالت نيللي بعد أن سحبت السائل الحلو بالمصاصة المضمومة بشفتيها :

– زمان عندنا في مصر كانت أحلى شيكولاتة صاقعة يشربها الواحد في محل البن البرازيلي بشارع فؤاد ، وكانت الفرجة على الزبائن متعة في حدّ ذاتها ، وكان الإنسان يقدر يشوف ناس لابسة أحدث موضات باريس ولندن وفي منتهى الأناقة ، لكن بعد التأميم وتحويل المحل لقطاع عام كل شيء فسد وتغير ، والشيكولاتة اختفت طبعًا ، حتى البن أصبح طعمه منيّل بنيلة وكأنه تراب وسخ ، لأنه مغشوش ومخلوط بالقمح والفول المحمّص ، شيء يقرف .

لم يكن هذا الكلام هو التعليق الأول لنيللي على التأميم والفترة

الناصرية ، فمنذ بداية جولتنا معًا في شوارع المدينة ، وتعليقاتها لم تنقطع عن زمن عبد الناصر ، وحتى على عبد الناصر نفسه ، وكأن بينها وبينه عداوة شخصية ، حتي أنني اضطررت لأن أسألها مباشرة إن كانت الثورة قد أمّمت ممتلكاتها أو ممتلكات أسرتها ، فنفت بشدة ، وقالت إنها لا تكره الثورة لسبب من هذا النوع، ولكنها تكره العسكر وترى أنهم مجموعة من الغوغاء الجهلة الذين يجب ألا يعهد إليهم بالحكم، ثم أردفت موضحة رأيها ، بأن سرّ روعة البلد الذي نزوره الآن هو أن الحكم فيه نجا من سلطة العسكر ، وأن الطبقات القديمة في بلدنا كانت محترمة جدًا ، لأنها تفهم في الذوق والأصول ومتمدنة فعلاً .

قلت لها إني أحبّ عبد الناصر ولم أفكر أبدًا في موضوع العسكر وإن الثورة لم تفدني ولم تضرني ، فبها أوبدونها كنت سأدخل ابني الجامعة وأصرف عليه من فلوس أبيه التي تركها له ، لكني بصراحة كنت أشعر دائمًا بالصدق في كلام عبد الناصر عندما يخطب ، وأحسّ أن الجُمَل طالعة من قلبه ، كما أنّ بلدنا كانت أيامه حلوة وفيها حياة والناس فرحانة ومتفائلة وعندها أمل في الدنيا وفي تحسين أحوالها ، وكل الناس كانت مرتبطة ببعضها ، وقلت لها أيضًا إنني لا أحب السياسة ولا أفهم فيها ، لكني أشعر أن حياتنا الآن بدون طعم ، والناس تعيش كما الأغراب على أرضها .

– أبدًا ، أبدًا . ردّت نيللي تعارضني ، وأردفت : بالعكس الناس مبسوطة و أحوالها منتعشة جدًا ، وعمّالة تلم الفلوس من هنا ومن هناك، كل أسرة عندها واحد أو أكثر سافر لبلاد النفط ، وكوّم الفلوس ورجع

وحسّن أحواله وأحوال أهله ، بُصّي للعمارات الجديدة في البلد ، ناطحات سحاب في كل ناحية وكأننا في أمريكا . تصوري كنت مع إبراهيم في ألمانيا من سنة ولاحظت أن عدد سيارات المرسيدس في الشوارع هناك أقل جداً من عددها عندنا في مصر ، وكنت مستغربة جداً . لا .. لا البلد أحواله ممتازة في السنين الأخيرة ، وتحسّن علاقتنا مع أمريكا رفع راسنا في العالم وجعل اسم بلدنا على كل لسان ، طيب هل تخيلتِ في يوم من الأيام أن يكون عندنا شغّالات آسيويات ؟ تصوري بمائة دولار ، لا أكثر ولا أقل يقدر الإنسان أن يشغّل شغالة آسيوية ، مديرة منزل بالمعنى الحقيقي للكلمة ، بدلاً من قرف الفلاحين وجهلهم وقملهم وأمراضهم .

تذكّرتُ "مال" التي ماتت منذ سنوات قريبة ، وترحّمت عليها ، كانت حنونًا طيّبة حكيمة ربّت معي صالح ورعته وكأنها أم حقيقية ، قرأت الفاتحة على روحها في سرّي واكتفيت بالرد على نيللي بقولي "ياسلام" ، ولم أشجّعها على متابعة الكلام ، ثم اقترحت عليها الذهاب إلى "البنك" لتغيير العملة الأجنبية التي معنا بعملة محلية ، لكنها نصحتني بالتريث وعدم الذهاب لأن من الواضح أن هذا البلد سياحيّ جداً ، ومؤكد أن هناك سوقًا سوداء ، يمكن تبديل العملات منها بسعر أفضل من سعر البنك .

شعرت بضيق إذ سأضطر لأن أكون بصحبة هذه المرأة طيلة الوقت ، وكنت قد بدأت أتوتر منها ، فقلت لنفسي : في الأيام المُقبلة ، سأتذرّع بأية حجج وأذهب إلى المدينة بمفردي ، فأنا لا أحتمل هذا النوع من

النساء ، وداخلتني رغبة مفاجئة في العودة إلى الفندق لتناول عشائي، والذهاب بعد ذلك للنوم ، فأنا عادة لا أحب السهر وأنام مبكرة كما أنني أفضل الصحو عند الصباح الباكر .

عندما عدنا إلى الفندق ، كانت الساعة تقترب من التاسعة ، فاقترحت نيللي أن نتعشّى أولاً ثم نذهب للنوم ، فوفّرت عليّ الكلام في ذلك ، ووافقت على ما اقترحته فوراً .

اخترت الطاولة ذاتها التي كنا نجلس إليها أثناء الغداء ، تركت حقيبتي معلّقة على طرف مسند الكرسي . توجهت إلى الحمّام فغسلت يديّ ومشطت شعري ، وعندما عدت لأجلس بادرتني نيللي بالسؤال :

- عاوزة أبيض أو أحمر ؟

نظرت إليها وانتبهت إلى وقوف النادل إلى جانبها ، ارتبكت وقلت بدهشة :

- لا أعرف .. لست ذوّاقة للأنبذة عمومًا .

ضممتُ شفتيّ مفكّرة ، ونظرت إلى الوجه الجميل الواقف ينتظر ، فأردفت بسرعة :

- أظنّ نشرب حسب نوع الأكل .. هه؟

سألته نيللي عن نوع الأكل فأجابها بصوت خفيض :

ردّت بسرعة :

- طيّب .. أحمر 'دراي' ، لكن اللحم كامل الاستواء ، أرجوك .

أومأ بالرأس الجميل موافقًا ، وأشار إليّ متسائلاً عمّا إذا كان لي طلب خاص ، وكنت أنظر إليه في هذه اللحظة . تلاقت نظراتنا لأول مرّة

فأجبت وأنا أبتسم :

- لا شيء .. شكرًا .

عاد بعد قليل بالخمر والعشاء . بدأ رأسي يدور وصوت نيللي يصل إلى أذني وكأنه نقيق ضفدع كبير مختلط بأصوات روّاد المطعم الآخذين في التزايد مع مرور الوقت .

عاد صالح والدكتور إبراهيم فانضمّا إلينا وراح صالح يقصّ علينا ما دار في المؤتمر من أحداث ، وكيف كان بحث الدكتور إبراهيم مفاجأة للجميع من حيث الجدّة وعمق المستوى العلمي ، خصوصًا بالنسبة إلى ما توصّل إليه من نتائج ، كنت تقريبًا لا أسمع شيئًا ، لكني أتابع الكلام بنظراتي ، وأرسلها بين الفينة والأخرى تلاحق الوجه الجميل ، الرائح ، الآتي ، بالأكواب والأطباق ، وكأن قوّة خفيّة تجعلني لا أستطيع أن أحيد بنظراتي عنه أو أنسى وجوده في المكان .

حكت نيللي لرجلينا عن جولتنا في وسط المدينة والسوق ، وقالت إنه من الواضح أن البوليس متحكّم في أمن البلد بطريقة ممتازة ، لأن الانضباط في الشارع مستواه مرتفع جدًا ، والناس غاية في الأدب والذوق ، ثم تحسرت على حال بلدنا : "الفوضى وقلة الأدب ، الوساخة وانعدام النظام، السمكرية والميكانيكية على طول الأرصفة" ، كانت تمضغ وتتكلم، وزوجها يتابع باهتمام الفتاة الأجنبية ذات الشعر البنفسجي ، التي كان صديقها يقبّلها بين الحين والحين . كانا جالسين إلى الطاولة المجاورة لنا . وجدته يسألني فجأة وهو يتابع مشهد المتحابّين مبتسمًا ويقول :

- هل فكّرت أن تفرحي بصالح يا مدام ؟

منذ شهور حدثني صالح عن ابنة أستاذ له في القسم ، وقال إنها ظريفة وخرّيجة آداب قسم صحافة ، وغالبًا سيجرى تعيينها مذيعة بالتلفزيون ، لأن ابن مدير قطاع الإنتاج طالب في القسم عند الأستاذ والدها ، وقد وعد أبوه بتعيين الفتاة إذا نجح ابنه في النهائى بامتياز وجرى تعيينه معيداً .

خمّنتُ بسرعة أن البنت إياها من المحتمل أن تكون بنت الدكتور إبراهيم فقلت بسرعة :

- والله يوم المنى يا دكتور لما عيني تشوف صالح وهو عريس في الزفّة . هو يأمر وأنا تحت أمره بدون قيد أو شرط .

كنت كاذبة بالطبع في كلامي الأخير ، فأنا أريد لصالح أجمل بنت في الدنيا ، أرقّ بنت في الدنيا ، وأعظم فتاة في الدنيا ، لكني لم أكن مستريحة بعد أن رأيت نيللي وتعرّفت عليها ، وتمنيت ألا يكون للفتاة شخصية كشخصية أمها : متكبّرة ، مفتعلة ، دائمة الفتوى ، تمنّيت أن تكون بسيطة ، بشوشة ، كوالدها الدكتور إبراهيم .

بعد انتهاء العشاء وصعودنا للنوم ، سألت صالح وأنا مستلقية على سريري المقابل لسريره عن موضوع بنت الدكتور ، فردّ بالإيجاب وقال إني أفهم المسائل وهي طائرة ، ثم أضاف أنّ الدكتور لمّح إلى ضرورة اتّخاذ خطوة عملية ، لكن المشكلة أنّه لم ير الفتاة إلا مرّات قليلة سريعة، ولا يستطيع أن يحدد بالقطع إن كانت تلائمه أم لا ، لكن الدكتور من الناحية العملية سنده في القسم بالجامعة وهو يفكر في الأمر جديًا .

يَوم مُؤنِس

١

فَتَحَتْ عينيها ونظرت إلى ساعة معصمها على ضوء الفجر الشحيح المتسلل إلى الغرفة من النافذة المطلة على الحديقة ، كانت العقارب تشير إلى السادسة . نهضت من السرير بكسل ، ثم أزاحت الستارة الرقيقة المسدلة على النافذة ، تطلعت إلى الحديقة من خلال الزجاج الشفيف . الأشجار مبللة بقطرات الندى ، والطيور عليها تُصبِّح على الصباح الوليد بمعزوفات الزقزقة والشقشقة وأغاريد شتى ، لكن تغريد البلبل كان يطغى عليها جميعًا بعذوبته وسحره ، وكأنه اللحن الأساسي لمعزوفة باهرة وهو يتماوج بنغمات يصعب وصفها أو رسمها بالكلمات، هل هي : كرو ... كرو، أو ترو ترو ؟! لا ليس هذا ولا ذاك ، حاولت البحث بعينيها عن مكان ذلك المطرب الصغير ، كانت ترغب في رؤيته وهو يرسل شدوه المتفرّد البديع ، لكنها لم تر غير العصافير المعتادة على رؤيتها في وطنها ، إضافة إلى نوع آخر من الطيور السوداء الصغيرة ذات مناقير حمراء معقوفة . حاولت تجسيد صورة البلبل في مخيلتها ، لكنها فشلت، حاولت تخيُّله مرة واثنتين وثلاثًا هل هو طائر ملوّن بريش زاه جميل ؟ أم

أنه طائر أبيض خالص بمنقار لا زوردي صافٍ ؟! ، لعله طائر بألوان قوس قزح البهيجة . لكن المخيِّلة لا تسعفها ولا تواتيها بصورة بلبل حقيقي رأته في حياتها ترتسم أوصافه في ذاكراتها . لم تعرف البلبل إلا من خلال صوته الساحر الأخّاذ عندما كان يمرّ آخر الليل على حديقة بيت جدتها ، أو يحطّ قرب الفجر على شجرة من الأشجار ويبدأ عزف أناشيده الأبدية ، فتفتح الجدة عينيها ، وتسمعها هي وقد كانت تنام إلى جوارها دائمًا ، وهي تقول : البلبل ، سبحان من أعطاه ، ثم تتنهد وتعاود نومها ثانية ، بينما تظل الطفلة الصغيرة مأخوذة بلحن البلبل حتى يغالبها النعاس مرة أخرى ، فتحلم بالبلبل طائرًا ضخمًا فخمًا ، بريش ملوّن بكل ألوان الدنيا التي عرفتها عيناها فتظل تتأمله وتناديه وهو يصعد إلى السماء رويدًا رويدًا ويختفي بينما هي ترجوه أن يأخذها معه بعيدًا بعيدًا ويطير بها إلى حيث هو ذاهب ، إلى عالمه الجميل .

فتّشت بعينيها أكثر ، علها تجد البلبل الذي طالما تمنّت رؤيته ، تفحّصت بنظراتها شجرتي الكينا الباديتين أمامها من خلف الزجاج ، لكن لا فائدة ، كل الطيور تتشابه لا اختلاف يذكر بينها وهي واقفة على الأغصان ، طيور سوداء لها مناقير حمراء ، وطيور باهتة الألوان ، كالتي تراها في كل حين ببلدها ثم فجأة ارتسمت في مخيلتها صورة وجهه كاملة، الشعر الفاحم المسترسل ، والعينين الواسعتين المبحرتين في غسق الليل، ثم الأنف الأشمّ والخدّ الأسيل . ضبطت نفسها متلبّسة مرة أخرى بتأمل ذلك الوجه ! اشتهاء ؟! هل تشتهي هذا الفتى ؟! لا المسألة ليست كذلك أبدًا ، إعجاب ؟! افتتان ! ما معنى كلمات من هذا النوع

بالنسبة لها؟! لقد ماتت ودفنت معانيها لديها منذ زمن بعيد ، فالرجال باتوا بالنسبة لها كائنات ليس إلا ، نوع من الكائنات كالأحصنة ، أو الأسود ، أو الأسماك ، ولا توجد لديها أية مشاعر خاصّة تجاهها : حتى محاولات الابتزاز والتحرش الجنسي التي كثيرًا ما تتعرض لها ، مثلها مثل كل النساء الأخريات ، لم تعد تؤثر فيها أبدًا ، لا تستفزّها أو تثير سخطها على الإطلاق : هرْش ما بين الفخذين بدون مناسبة ، أو فتح أزرار القمصان حتى تبين الصدور المشعرة ، التطلّع إلى صدرها وساقيها ، ثم التلميحات والتّرميز الكلامي أثناء العمل ، كل ذلك لا يثير فيها أية مشاعر إلا من ذلك النوع المتولد لديها عند التطلع إلى حائط .

"إذن ما هذا الشعور الغريب الجديد ، الذي يعتريكِ كلما رأيتِ أو تذكرتِ صورة هذا الشاب الجميل ، لماذا تعاودكِ صورته دائمًا ، بمناسبة وبدون مناسبة؟ ، هل هو السفر ؟ ، الخروج من الوطن ؟ ، حالة انعدام الوزن التي أصبحتِ فيها منذ مجيئكِ إلى هذا المكان ، الذي لا معنى لوجودك فيه غير أنك أمٌ ترافق ابنها المترفّق بها والراغب في إدخال البهجة إلى قلبها باصطحابها في هذه الرحلة الطريفة ؟".

تشعر أنها غير طبيعية ، غير متوازنة ، في حالة قلق غريبة لم تمرّ بها من قبل . ابتعدت عن النافذة ، وتأملت ولدها النائم . لا تعبير على وجهه . لن يفيق قبل الثامنة كعادته . حارت ماذا ستفعل بنفسها خلال الساعتين القادمتين ، حتى ميعاد استيقاظه ، لوكانت في بيتها لعملت ألف شغلة وشغلة في هذا الوقت، فغسلت مواعين وصحون عشاء الليلة الفائتة ، ولفّت شعرها بالبكرات ، وأخرجت صندوق الزبالة حتى لا تنسى

وتغادر البيت إلى عملها فيدقّ الزبّال الباب ولا يجدها ، ربما سلقت لحمًا بسرعة ليكون جاهزًا لوجبة الغداء عند عودتها وصالح إلى البيت ، وربما غسلت حوض الوجه ونظّفته قبل حمّامها الصباحي المعتاد ، وربما وربما، فقاموس مهامّها المنزلية لا ينتهي ، ووقت الصباح لديها مسروق من الزمان فهو محسوس من العفاريت ، يطير ويختفي مثلما تطير هذه العفاريت وتختفي دون أن يراها أحد .

اقترحت على نفسها حلاً مناسبًا لقتل الوقت حتى ساعة استفاقة صالح من النوم ، خلعت قميص نومها القطني الخفيف بسرعة ، أدخلت نفسها في قميص وسروال كيفما اتّفق ثم مشطت شعرها ولمّته بحلقة مطّاطية ، وغادرت الحجرة بهدوء وانتقلت إلى السلّم مجتازة بعده الممشى المفضي إلى الحديقة ، ولما بدأت تخطو إليها إذ : كرو .. كرو بلبليّ رائعة أتتها من شجرة الكينا ، ثم صاحب الوجه الجميل و : صباح الخير .

– صباح النور .

ردّت وهي تتطلع إليه مذهولة ، تسمرت لحظات قبالته ، ثم مضى كل منهما في طريقه . خرجت إلى الحديقة ، دارت دورة أو دورتين فيها ، لم تدْرِ ، كانت مضطربة ، أجل مضطربة تشعر بخوف ، بضيق ، بنشوة ، انقلب حالها من أوّله إلى آخره .

ما الصدفة ؟ سألت نفسها وحاولت الإجابة : "الحادث الذي يقع دون أن نخطط لحدوثه ودون أن نتوقعه" . لكن هل ما حدث منذ قليل صدفة ، أصدفة أن يفكر المرء في شخص ثم يلتقيه بعد دقائق معدودات من

التفكير فيه ؟

ساءلت نفسها مرة أخرى، وراوغتها بالإجابة : "طبعًا يا بنت صدفة؟، ثم إن الصدفة الأساسية هي أنكِ فكّرت فيه قبل أن تلتقينه أصلاً . إنها مجرّد صدفة لا غير" . هدأت قليلاً ، وطمأنت نفسها بهذا التحليل الأخير، وتركت الفندق وهي تشعر بروعة الطقس وبرودة الصباح اللذيذة تتآلفان مع فيض الخضرة السارحة في الشوارع وجناين البيوت وشرفاتها ، وها هي : كرو كرو تأتيها بين الفنية والأخرى . سبحان الله! تبارك الخلاّق ! قالت لروحها، وصفاء غريب يتسلل إليها، وصلح مع نفسها والحياة يداخلها بشكل لم تعرفه منذ سنوات طويلة ممتدة من عمرها . اعتراها إحساس من يبصر لأول مرة ، أو يولد من جديد ، أمّا رأسها فلا فكرة واحدة تدور فيه غير :" الله ! سبحان خالق الكون والجمال !" لا مشاكلها في شركة المعادن على العلاوة الدورية ، ولا غيظها من جارها الجديد الذي يفتح الراديو طوال الليل والنهار ولا ورشة إصلاح السيارات في الشارع، المستمر ضجيجها معظم ساعات اليوم ، كل ذلك لا يمكن أن يطفو الآن على سطح أفكارها ." يا سلام .." قالت لروحها مرة أخرى وهي تدور دورة جديدة حول الفندق وتفتح صدرها لهواء الصباح الصافي المنعش . كان هواءً لم تستنشق مثله منذ رحيلها مع أهلها من الريف إلى المدينة قبل حوالي ستة وثلاثين عامًا حيث استقرّ والدها موظفًا في أحد دواوين الحكومة .

بدأت تشعر بتعب في قدميها من كثرة المشي فاستدارت وقررت العودة إلى الفندق لأخذ حمّامها الصباحي ، والاستعداد ليوم جديد من

أيام الرحلة .

عندما فتحت باب الحجرة وجدت صالحًا واقفًا يعقد ربطة عنقه أمام المرآة فلما رآها استدار وعانقها بعد أن حيّاها تحيّة الصباح وقال :

- واضح أنك مبسوطة يا ماما .. والله شكلك صغر حوالي خمس سنين، وزدت حلاوة . واضح أنه من الضروري الانتباه لك لأن المعجبين بك عددهم في الزيادة طبعًا من هنا وطالع .

شعرت بخجل حقيقي نادرًا ما يحدث لها عندما يقول صالح مثل هذا الكلام الذي يكرره عليها بين الحين والحين ، اعتراها شعور خفيّ بالذنب، لكنها تبسّمت وقالت :

- كُل بعقلي حلاوة يا حبيبي .. الحلاوة والشباب والجمال ، انتهوا من سنين فاتت .

استنكر الابن قائلاً :

- يا سلام !! ، أنت عمرك أربعة وأربعين سنة ، يعني في عزّ شبابك ، طيب والله الدكتور إبراهيم قال لي إنّه عند أول مرة شافك ظنّ أنك أختي، والله لو أنك قلت يا شباب ، لحضر إليك عشرة لتختاري منهم واحداً .

ضحكت بسعادة وردّت عليه مازحة :

- اخرس يا ولد ، بلا كلام فارغ ، رُح انتبه لحالك ، وخلّيك في الجدّ، بصراحة الفرصة مناسبة لتفاتح الدكتور إبراهيم في موضوع البنت .

لم يُبدِ الإبن حماسًا لرأي أمه ، وقال إنّه يفضل أخذ فرصته في التفكير رغم أن الزواج بابنة الدكتور سوف يفتح له الأبواب المغلقة في

القسم بالجامعة، كما أن ذلك سيضعه على عتبات المستقبل الحقيقي ، لأن من المتوقع أن يدير الدكتور إبراهيم مستشفىً استثمارياً كبيراً ، وبالتالي فالعمل معه سيكون مضموناً ، لكن هناك أموراً كثيرة يجب التفكير فيها أيضاً ، فوضع أمّه بعد زواجه يقلقه وهو يخاف تركها تعيش وحيدة في البيت بمفردها .

زعقت فيه بغضب عند هذا الحدّ من كلامه وقالت :

– اسمع يا صالح ، آخر مرة تفكر بالأسلوب السخيف إياه ، أظن أننا تناقشنا في الموضوع ألف مرّة ، وقلت إنّه من الطبيعي أن أعيش وحدي، يا صالح قلت لك أن علاقتنا سويّة . أنت ابني ولكنّي لا أملكك ، حياتك في يوم من الأيام ستستقل عن حياتي .

ضمّها إليه ، قبلّها وطمأنها أن علاقتهما جميلة وسويّة لأنهما صديقان قبل أن يكونا إبناً وأمّاً ، لكنه يريد ردّ جميلها وطول صبرها وانتظارها وبقائها كل تلك السنين التي مرت دون زواج لأجله .

حسمت الأمر بجدّ ، وقالت إنه الوحيد الذي يعرف تماماً أنها لم تتزوج لأسباب لا تتعلق به ، وأنها لا ترغب في الرجال إلا كرغبتها في كائنات من نوع النسور أو النمور أو الحيوانات المتوحشة .

ضحك صالح وحاول تطييب خاطرها قائلاً :

– خلاص .. خلاص ، بلا مشاكل على الريق ، تعالي ننزل لنفطر .

قالت وهي تتثاءب وتتمطى ، وكانت تشعر بثقل في جسمها ، ووهن في عظامها .

– لا .. انزل أنت وكل لأنني عاوزة أدخل الحمام وأغسل شعري وألفّه

وأخيط كمّ الفستان المشمشي المفتوق ، وبعدما أنتهي ، أفكّر في الأكل .

– طيب .. أنا نازل المطعم ، وبعد الأكل أروح المؤتمر ، ومعنى ذلك أن نتقابل وقت الغداء ، وعلى فكرة اعملي أي مشروع مع مدام نيللي لأن الدكتور وقته ضيّق ومنشغل جدًا في المؤتمر .

ردّت عليه ، بعد أن قال لها ذلك ، بعصبيّة وضيق :

– بصراحة ، نيللي رغّاية جداً ، معظم الوقت تفتي في الكبيرة والصغيرة ولا تملّ الكلام عن نفسها .. مغرورة خالص .

لم يعترض على رأيها ونصحها أن تتعلل بأي عذر كيلا تخرج معها ، واقترح عليها الاحتفاظ ببطاقة الفندق من باب الاحتياط حتى لا تتوه لو قررت الخروج بمفردها ، ثم قبلها ونزل إلى المطعم ليتناول إفطاره .

٢

دَخَلْتُ المطعم حوالى الساعة العاشرة إلا ربعًا ، فوجدته شبه خالٍ ، إذ لم يكن فيه أحد غير الفتاة الأجنبية ذات الشعر البنفسجي وصديقها، اللذين كانا يهمّان بالخروج ، رمقاني بنظرة معناها : المطعم على وشك الإغلاق ، وأنت تدخلين الآن . اخترت منضدة أستطيع التطلّع من موقعها إلى مشهد الحديقة الجميل . كان هو مشغولاً وقتها برفع الصحون والأطباق المتخلّفة على الطاولات. فتحت حقيبتي وتأكدت من وجود جواز سفري وحافظة نقودي بها ، ثم وضعتها إلى جانبي على المنضدة عندما جاء وسألني مبتسماً :

– صباح الخير .. شاي أم قهوة ؟

– صباح النور ، شاي مع الأكل ، وقهوة في الآخر من فضلك .

قلت ثم تفحصته قليلاً بنظراتي ، وبعد تردد ، استجمعت شجاعتي وأردفت سائلة إياه عن اسمه .

– يوسف .

أجاب بعد أن زمّ شفتيه ولامسهما بأنامله الرقيقة وهو يتأملني بدوره،

ثم مضى سريعاً مواصلاً عمله .

جاء بعد فترة حاملاً فطوري من الشاي والحليب والزبدة والمربّى ، ثم عاود رفع الصحون والأكواب وترتيب الطاولات . كان ظهره في أغلب الأحوال بمواجهتي ، أحياناً كنت أرى مشهد وجهه الجانبي عندما يستدير قليلاً ليعدّل من وضع الكراسي ، وجه جميل متباين التعبير وكأنّ صاحبه يفكّر بجدّية في أمر من الأمور ، أو يناقش مسألة بينه وبين نفسه . أفكّر وأنا أمضغ طعامي : "من يكون يا ترى هذا اليوسف ؟! ولماذا يعمل نادلاً في مكان كهذا ؟! كم عمره على وجه التقريب ؟! مستحيل أن يكون قد بلغ الثلاثين ، بل ربما كان عمره أقل من ذلك بكثير. يبدو أنه في سن أصغر من سن صالح ابني ، لكن لماذا أشغل نفسي بهذا ؟! مالي وماله سنّه . فلأفكر فيما يجب أن أفعله طوال الساعات القادمة وحتى وقت الغداء" . لقد فرحت لأن نيللي كلمتني في الغرفة قبل نزولي إلى المطعم واعتذرت عن الخروج معي لأنها ستذهب إلى صالون التجميل في الفندق لتوضيب شعرها وأظافرها بعد اكتشافها أن المحلّ ممتاز ، وكأنه واحد من صالونات الشانزلزية الباريسية . ولكني الآن بعد تحرري من صحبة نيللي، أشعر أني سأكون وحيدة ، ولا أعرف ما الذي سأفعله بنفسي خلال الساعات المقبلة .

شعرت بعطش وجفاف في حلقي ، فناديت يوسف وطلبت منه ماءً ، هزّ رأسه بالإيجاب وذهب ثم عاد بزجاجة ماء ، وبينما هو يصبّ الماء في الكأس الموضوع أمامي على الطاولة سألته مستفسرة :

- هل عندك فكرة عن متحف قريب من هنا أو عن أي مكان يستحق

الزيارة والفرجة عليه ؟

نظر إليّ متمعّنًا وهو يضمّ شفتيه ويتحسسهما بأنامله مثلما فعل في المرّة السابقة ، وبدأ يفكر وكأنه لا يراني ثم قال :

– متحف لا .. لكن مركز الصناعات التقليدية مكان جميل .

– هل فيه حاجات معينة ؟ عاودت الاستفسار .

– كل شيء تقليدي . أجاب .

ثم عدّد بلهجته أسماء أشياء فهمت بعضها ولم أعرف المقصود بالبعض الآخر .

أخبرني أنه يكفي أن أطلب من سائق سيارة الأجرة توصيلي لمركز الصناعات التقليدية ليأخذني إليه ، ثم أشار إلى ما أمامي من أشياء على المائدة ، وسألني إن كنت قد انتهيت من الفطور ليرفعها .

شكرته على الإفطار ، وطلبت منه قهوتي التي أشربها عادة بسكر خفيف ، فقال كلمة لم أفهم معناها ولكنّي خمّنت أن تكون بمعنى "بالهناء والشفاء" مثلاً .

قبل أن يعود بالقهوة كنت قد أخرجت علبة سجائري وأشعلت سيجارة، سحبت منها نَفَسَيْن ، ثم ملت لأشدّ جوربي الساقط عند ركبة ساقي اليسرى وبينما هو يصبّ القهوة التي عاد بها بسرعة ، سألني إن كنت سأذهب إلى مركز الصناعات في التو ، وهل سأعود عند الظهر لتناول الغداء في الفندق ، فلما قلت له طبعًا طبعًا ، ابتسم برقّة ومضى .

ذهبت إلى مركز الصناعات التقليدية ، وشعرت أنّي لم أبعد كثيرًا عن خان الخليلي بالقاهرة ، أوانٍ نحاسية وفخارية ومنسوجات تقليدية ، مع

اختلاف بسيط في الألوان والأسلوب ، درت في المكان وقتًا طويلاً ، أتفرّج وأمتّع عيني بالأصالة والجمال ، اشتريت بعض الأشياء ثم قررت العودة إلى الفندق في نهاية الأمر .

تأخرت قليلاً عن وقت الغداء بسبب انتظاري طويلاً لسيارة أجرة تقلّني من أمام مركز الصناعات التقليدية حتى الفندق ، وبمجرد أن دخلت المطعم وجدت الدكتور إبراهيم وزوجته وصالحًا في انتظاري ، فسألني صالح بلهفة عن سبب تأخري ، فحكيت له عن مشكلة سيارات الأجرة ووقوفي تحت الشمس أنتظر . تركت مَا ابتعته من المركز على مقعدي ، واستأذنت الجميع في الذهاب للاغتسال في دورة المياه .

عندما دخلت دورة المياه الملحقة بالمطعم ، مشطت شعري سريعًا وغسلت يديّ ؛ كنت قد بدأت أشعر بصداع خفيف ، الحقيقة ليس صداعًا بالضبط ولكنه آلام في عظام رأسي ؛ عدت إلى الجماعة ، وجلست إلى جوار صالح الذي سألني عما اشتريت ، فأخرجت من اللفافات الورقية إبريقًا خزفيًا مزخرفًا بنقوش زرقاء رائعة ، وشمعدانًا نحاسيًا صغيرًا . وكان يوسف قد جاء بطبق الخبز ليضعه أمامنا ، فنظر إلى الإبريق والشمعدان ، ثم نظر إليّ وابتسم دون أن يقول شيئًا .

قالت حرم الدكتور إبراهيم وهي تمد يدها وتسحب شريحة خبز من السلة وترفعها إلى فمها .

– لطيف جداً الولد الجرسون ، عندنا في البلد الجرسونات خلقتهم تقطع الخميرة من البيت ، ثم ضَحِكَتْ على ما قالته .

لم تبدِ حماسًا لمشترياتي : "فخّار ونحاس!" واكتفت بالتعليق على

أسعارها المرتفعة إذا ما قورنت بالأسعار المصرية ، لم يردّ أحد على رأيها في نادلي المطاعم واكتفي صالح وزوجها بالابتسام ، فاسترسلت تحكي تجاربها مع نادلي مطاعم القطاع العام في مصر ، وقطار الأقاليم السريع ، وأشارت إلى وقاحتهم ووساختهم ، وطريقتهم الفجّة في التعامل مع الزبائن ، وخصوصًا المصريين لأنهم لا يعطون إكراميات مثل الزبائن العرب والأجانب .

كانت آلام زوري تتزايد ، وشوك خفيف قد بدأ ينبت في حلقي ، آخذًا في وخزي ، لم أكن أرغب في فتح فمي والنطق بأي كلام ، ورحت آكل دون شهيّة ، وبِصمت تامّ مكتفية بهزّ رأسي وأنا أتابع ما يدور أمامي من حوار. كانت أمنيتي في هذه اللحظة سكوت الجميع ، وأن تكفّ نيللي عن الكلام، وينتهي واجب الغداء بسرعة لأصعد إلى غرفتي ، فألقي بجسدي على الفراش وأنام . وفعلاً انتهى كل ذلك بعد حين ، فصعدت إلى غرفتي وحيدة ، لأن صالحًا أعلن أنه سيخرج من المطعم مباشرة ، بعد انتهاء الغداء إلى المستشفى الحكومي العام لزيارته ، والتعرف على سير العمل فيه ، وبعد ذلك إلى الندوة المسائية للمؤتمر . اقترحت نيللي أن نذهب معًا هي وأنا بعد الظهر إلى سوق الذهب ، لأنهم حدثوها عن المشغولات الذهبية وروعتها في هذا البلد ، وأسلوبها المختلف عن شغل الذهب في مصر . اعتذرت لها متذرعة بضرورة أن أنام لأني متعبة وأنه من الأفضل أن نلتقي حوالي السابعة لنتناول القهوة معًا .

خلعت ملابسي بسرعة ، وأدخلت نفسي كيفما اتّفق في قميص نومي القطني السماوي ، وانزلقت في الفراش . كانت آلام رأسي تتمدد ،

وتسيطر على جمجمتي تماماً ، ودبابيس زوري تتكاثر تكاثراً لا نهائياً ، تحسّست جبهتي ، لا حرارة تلحظ ، لكن آلام رأسي تتمدد وتكتسح مساحات أخرى من عظام الجسد، خصوصاً عمودي الفقري وركبتي. ندمت على تناولي وجبة الغداء ، إذ شعرت برغبة خفيفة في إفراغ ما في جوفي ، قلت لنفسي لا داعي لذلك ، ودعوت ربي صادقة ألاّ أضطرّ له ، لأن هذه العملية تكاد تقتلني وتجعلني على وشك الإغماء الحقيقي . اقترحت على نفسي ابتلاع قرص أسبرين بقليل من الماء ، لكني سرعان ما عدّلت الاقتراح ، واستبدلت الماء بفنجان من الشاي الخفيف ، المعصور عليه نصف ليمونة ؛ إذن ، أرتدي ملابسي ، وأنزل إلى مقهى الفندق، لكن، مستحيل أن تحركني أية رغبة أو قوة من مكاني على السرير . طيّب، أطلب الليمون والشاي الإضافي هنا في الحجرة ، وإن شاء الله تزول آلامي وأنام لأقوم بعد ذلك مرتاحة .

حاولت البحث عن دليل للخدمات فلم أجده ، فطلبت موظف الاستعلامات الذي حولني إلى المطعم لأطلب منه ما أريد ، طلبت الشاي والليمون . كانت روحي غائمة وأشعر بضيق في تنفسي وتزايد في رغبتي بالقيء ، لكني كنت أقاوم بعنف ، فأنا أقرف من القيء ، أخاف أن أصاب بالإغماء بعده .. لا لن أفعل ذلك ، وسأقاوم ، لكن رأسي يدور وأشعر بحركة خفيفة في سقف الحجرة ، وأن التلفزيون الموضوع على المنضدة في الركن يدور وكذلك الكرسي "الفوتيه" أيضاً ، وبدت لي الوردة الوحيدة في المزهرية فوق منضدة الشاي الصغيرة ، وكأنها تلفّ حول نفسها ، النجدة يا ربي ، أرجوك ، لا داعي للقيء ، ثم سمعت طرقاً

خفيفًا على الباب ، فسحبت نفسي من السرير بصعوبة وفتحته بسرعة وأنا أشير لحامل الصينية بالدخول ووضعها بالحجرة ، بينما طارت قدماي إلى مغسلة الحمّام ، وبدأت في التلوي ، والدبيب على الأرض بقدميّ الحافيتين ثم : أوع .. أوع .. أوع .

كنت أتعذب فعلاً ، أشعر أنني سأختنق ، سأموت ، ستخرج أحشائي عن آخرها من حلقي ، طفَرَتْ الدموع من عينيّ ، وأنا أحاول جاهدة الإمساك برأسي حتى لا يرتطم بطرف حوض المغسلة . أعاود القيء وأرسل .. أوع .. أوع ، أدُبُّ على الأرض بقدميّ أكثر مستنجدة بالفرج ، ولكني في هذه اللحظات أشعر براحتين تمسكان برأسي وتحكمان حركته، أخرج ما في جوفي دفعة واحدة ، ثم أبصق مرة واثنتين وثلاثًا ، حتى لا يتبقّى في فمي ريق .

– لا بأس .. لا بأس.

همس يوسف برقّة ، بعد أن حرّرت يداه رأسي ، وراحتا تربتان على ظهري بحنان ، أفقت من شبه الغيبوبة التي عشتها منذ لحظات ، شعرت بخجل عميق، وتمنّيت أن تنشقّ الأرض وتبتلعني ، ماهذا القرف ؟! لماذا أظهر في هذه الحالة المقرفة ؟ لماذا أفعل هذه الأشياء أمام الآخرين ؟! لا.. بل أمام يوسف تحديداً، تضاعف خجلي وشعرت بحرج لا أدري ما أفعل معه . فتحت صنبور الماء سريعًا وغسلت وجهي ويديّ ، رحت أمضمض فمي وأغسله بالمعجون والفرشاة ، بينما الدموع تنهمر من عيني وتضيع مع الماء الذي لا أتوقف عن مسح وجهي به ، سحبت المنشفة بسرعة لأجفف وجنتيّ وعينيّ ، ثم خطوت إلى الحجرة تاركة

الحمّام . لاحظت وأنا أجلس على حافة السرير وجود يوسف واقفًا إلى جوار الباب المفتوح قليلاً .

– بخير ؟ .. أنت الآن بخير ؟

تساءل بصوت خجول ، فأجبته :

– الحمد لله .. أنا آسفة جدًا ، لا تؤاخذني ، أصلي مرهقة بعض الشيء ، ثم اختنقت الكلمات في حلقي وانهرت باكية .

لا أعرف لماذا البكاء ؟ هل من فرط الخجل ؟ هل من الاضطراب والمفاجأة لدخول هذا الشاب الغريب إلى حجرتي وأنا في هذه الحالة البائسة ؟ هل لأن زوري وحلقي يحرقاني حرق النار ، وعظمي تتزايد أوجاعه ؟ لا أعرف لماذا بكيت بحرقة على هذا النحو بكاء لا يحدث لي كثيرًا ، ولكني أصاب بنوباته على فترات متباعدة ولا أستطيع إيقافه بسهولة ، مثلما حدث لي منذ مدة عندما اختلفت مع زميلة لي في العمل فاتهمتني بأني معقدة وأحاول فك عقدي على حسابها . رحت أبكي بمرارة من يشعر ببؤس حقيقي وضياع لا حدود له ، كما لو كان هناك زرّ خفي بداخلي قد تم الضغط عليه ، فانفجرت طاقة البكاء والألم المحتبسة بروحي . هكذا دخلت حالة انهيار بدون مقدمات ، كَسَدٍّ طينيّ هش جرفه الطوفان ، ولا يعلم إلا الله وحده متى يتوقف هذا الانهيار .

ماذا سيقول عني هذا الشاب الواقف على بعد خطوات مني ؟ امرأة مجنونة، مصابة بالهستريا ، ياللعار وددت أن أطلب منه الخروج وتركي بمفردي، أن أقول له كفى فرجة على حالي من فضلك ، لكني لم أقو على ذلك ، وكأنّ هناك رغبة خفيّة تنبع من داخلي تلجمني ، وتجعلني أرغب

في وجوده طوال فترة بكائي على هذا النحو ، واقفًا ينظر إلي بدهشة وارتباك من مكانه بجوار الباب .

لكن وقوفه لم يستمرّ طويلاً ، اقترب مني تاركًا مكانه ، ركع على قدميه في مواجهتي ، ثم أمسك براحتيّ محاولاً إبعادهما عن وجهي الذي كنت أخفيه فيهما وأنا أنهنه ، همس بصعوبة وفي انفعال حقيقي :

– كفى أرجوكِ ، كفى أرجوكِ .

لم أكفّ ، تحوّلتْ نهنهاتي إلى تشنج ، وتواتر سقوط دموعي على نحو أسرع ، مسح على شعري بيده ، وأزاح الخصلات المبتلّة بالدمع عن وجهي وعاود رجاءه لي :

– كفى بالله .. كفى .. أرجوكِ .

رفع وجهي بيده ، ونظر إليّ النظرة المتمعّنة ذاتها التي نظرها إليّ في المطعم ، ارتبكت وشعرت برجفة في قلبي . قررت وضع حدّ لكل هذا، فحملت المنشفة لأجفف دموعي ، مسحت أنفي وقلت :

– خلاص .. شكرًا .. خلاص .

لم يتحرك ، ظلّ ينظر إليّ ، وعندما تأكد أنه لا دموع ، لا نهنهة ولا نشيج ، وقف على قدميه مرة أخرى ، وذهب إلي صينية الشاي وسألني:

– كم قطعة سكر ؟

– بدون سكر .. شكرًا . قلت .

حمل فنجان الشاي بعد أن عصر قطرات من الليمون عليه ، ثم جلس إلى جواري على حافة السرير وقال :

– اشربي .. اهدأي .. هه .

تناولت من يده فنجان الشاي ، رشفت رشفة سريعة ، ثم أخرى ، شعرت أني لا أرغب في تناول شيء ، فوضعته جانبًا على الدولاب الصغير المجاور للسرير وقلت :

- أريد أن أنام .. مستحيل أن أشرب أي شيء .

حمل الفنجان ووضعه على الصينية ، لكنه عاد إليّ مرة أخرى وتساءل:

هل عندك دواء للرأس ؟

أومات برأسي مجيبة إياه .

- طيّب نامي .. أرجوك .

خطا إلى الشباك ، وأحكم إسدال الستار ، وبدا للحظات حائرًا ، كما لو كان لا يريد مغادرة الغرفة ، كمن يرغب في عمل شيء ما لكنه لا يستطيع ، وكنت أنا أيضًا لا أعرف ما الذي يجب أن أقوله . أخيرًا نطقت هامسة له :

- يوسف اطمئن ساكون بخير .

لا أعرف ما الذي حدث بعد ذلك على وجه التحديد ، كيف حدث ؟ فقد وجدته يتقدم نحوي مرة أخرى ، ويجلس إلى جواري على السرير ، ثم يضمّني إلى صدره بشدة ، ذبت ، حقًا ذبت ، تلاشيت تلاشي قطرة ندى تحت شمس الصباح وشعرت أني تضاءلت ، انكمشت ، حتى بِتُّ ذلك الكائن الصغير ، الغريب في صدره . عندما تركني مرة أخرى ، ونظر إليّ تلك النظرة المتأملة ، كنت مذهولة ، مأخوذة ، لا أقوى على الحركة أو فعل أي شيء ، كنت فقط أرتجف ، هو أيضًا كان يرتجف ، هبّ واقفًا

بسرعة وتنهد ، وبدا كمن يحادث نفسه ، ثم أغلق باب الغرفة وذهب .

حجرة المكتب معتمة ، لكن نور الغروب الخفيف يتسلل إليها ، أرتجف وأحاول بلا جدوى فتح درج المكتب لإخراج الأوراق ، أخيراً أفلح في إخراجها وأبدأ في تمزيقها ، أضغط بكل ما أملك من قوّة وأمزّقها قطعًا قطعًا ، لكني لا أنجح ، لا جدوى فهي لا تتمزق وكأنها مصنوعة من رقائق الفولاذ وليس من ورق الكتابة . يتملكني الخوف والرعب ، تُشلّ حركتي وأنا أسمع صرير المفتاح وحركة باب البيت وهو يُفتح ، أنهار وأشعر بالبول يتسرّب بين فخذيّ ، وفجأة على ضوء الغروب الميّت ، أجده واقفًا على باب الحجرة يقهقه ساخرًا ثم يقول : - قلت لكِ إنها لا تتمزّق أبدًا .. حمارة، متصوّرة أنّكِ قادرة على تقطيعها، مستحيل، لن تتقطّع، لن تنمحي أبدًا .

صرخت ، توسلت إليه أن يتركني وشأني ، أن يسمح لي بالتخلص من الأوراق اللعينة التي تحطمني وتمزّقني ، سألته وأنا أصرخ بغضب لماذا لم يصارحني بالحقيقة، ولماذا تزوّجني وهو مدرك أنه هالك لا محالة. قلت له: إنك سافل منحط ، خدعتني وغررت بي ، لو كنت صارحتني بحقيقة مرضك ، لو كنت واضحًا معي وأخبرتني بأنه لا شفاء منه لربما كنت أحببتك ، تعاطفت معك، بقيت لك الزوجة الوفيّة مدى الحياة ، والتي تحمل ذكراك طيبة بعد مماتك ، لكنك إنسان أناني ، فضلت الخديعة ، فضلت أن أحيا معك في الكذب ، وتركت لي هذه الأوراق لتنغّص حياتي كلّها بعد موتك ، لتجعلني أكتشف حقيقتك وأكرهك ، وأكره الحياة كلّها بعد ذلك .

انهرت باكية وتوسلت إليه مرّة أخرى أن يتركني أمزّق الأوراق ، أن أعيش في الوهم مرة أخرى ، وهم أنّه مات ميتة عادية فاجأته كما يفاجىء الموت كّل الناس، وأنّه لم يكن على علم بانقضاء أجله بعد حين بذلك الداء الخبيث الذي لا أمل في الشفاء منه . رجوته أن يدعني وشاني، ان يتركني أعيش الحياة وأقبل عليها كبقيّة خلق الله ، وأحبّ نفسي والناس ، وأشعر بوجود بَشَر يسمونهم الرجال ، مثلما تشعر بهم أيّة امرأة أخرى في العالم .

لكنه استمرّ في سخريته مني ، واندلعت من فمه قهقهاته النارية السُمّيّة الحقود ، راح يقترب مني شيئًا فشيئًا وهو ينظر إليّ نظرات غريبة مخيفة ، ارتعبت وأخذت أحاول الابتعاد عنه لأهرب من الغرفة ، لكنّ قدميَّ لم تتحركا كأنهما مسمرتان إلى الأرض . أُسقِطَ في يدي وشعرت أن نهايتي قد أوشكت فأطلقتُ صرخة يائسة معذبة بكل ما فيَّ من قوة ، شعرتُ بعدها وكأني دخلتُ في غيبوبة لن أفيق منها أبدًا" .

وجدتني أفتح عيني بعد هذا الكابوس ، يداهمني ضوء المصباح المصمّم على هيئة فانوس عربي قديم ، والمتدلي من سقف الحجرة ، أخيرًا تنبهت على صوت صالح :

– ماما مالك ؟ اصحِ . الساعة عدّت التاسعة والربع ، أنت غاطّة في النوم،

أجبته بوهن :

– يا خبر ! فعلاً غبت في النوم ، أصلي تعبت ، ورجّعت الأكل من معدتي بعد الغداء . حلقي ملتهب . محتمل أن الشمس ضربتني في

دماغي ، أو أن عندي نزلة برد . شاعرة أني محتاجة لمضادٍّ حيويٍّ وفيتامين ج .

قال صالح :

- طيِّب تعالي معي نتعشّى لأن الدكتور إبراهيم ومدام نيللي في انتظارنا بالمطعم ، واشربي الدواء بعد الأكل . قال صالح .

- لا يا صالح .. اتركني هنا .. نفسي مسدودة عن الأكل ، لكني عاوزة أشرب فنجان شاي .

- هل عندك حرارة ؟ تساءل .

- لا ، جسمي حاطط جداً . أجبته وأنا أتقلّب بصعوبة في الفراش .

- طيِّب يا ماما ، سأطلب لك الشاي ومعه زيتون أسود ولبن زبادي و"توست" بالجبن .

قال ذلك وكنت أفكر أنني لا أريد رؤية يوسف مرة أخرى ، لا أرغب أن يأتي إليّ هنا في الحجرة حاملاً الشاي والطعام ، كنت خائفة من لقائه ورؤيته حتى في المطعم ، قلت بحدّة :

- لا .. لا ، لا أريد أي شيء حتّى الشاي .

اغتاظ واحتجّ قائلاً :

- غريب أمرك والله يا ماما ، منذ لحظة قلت عاوزة فنجان شاي، أفضل يا ماما أن تشربي الشاي وتمصّي زيتونتين أو ثلاثًا لأنّه مفيد لزورك ، ولبن الزبادي مريح لمعدتك ، ومستحيل شرب المضادّ الحيوي وفيتامين ج على معدة فارغة ، أنا نازل بسرعة ، وسأرسل لك الشاي والأكل .

قمت إلى الحمّام غسلت وجهي ومشطت شعري ، وكنت قد بدأت أشعر بقشعريرة في جسدي ، فارتديت سترة صوف خفيفة فوق قميص النوم تطلّعت إلى وجهي في المرآة : وجه شاحب بعينين منتفختين ، تضايقت من منظري ، وقلت لنفسي : واحدة هشّة ، تبكي لأتفه الأمور كما العيال ، ثم سمعت طرقًا على الباب .

كنت أرتجف وأنا أدير مقبض الباب ، كيف سأواجه يوسف مرة أخرى، كنت واهنة فعلاً ، لا أستطيع التفكير أو الكلام ، لكن ، الحمد لله، تنفّست الصعداء وأنا أرى نادلاً آخر غير يوسف واقفًا أمامي حاملاً صينيّة العشاء . نادلاً كنت أراه يعمل في الجزء الآخر من المطعم، المفصول عن الجزء الذي نأكل فيه بحاجز خشبيّ صغير من "الأرابيسك" الجميل . حيّاني تحية المساء . ثم وضع الصينية على المنضدة القريبة من الباب ، وكان على تلك الصينية الشاي والزيتون و لبن الزبادي ، إضافة إلى زبدة ومربى وخبز وكوب من عصير البرتقال . أعطاني الفاتورة والقلم لأوقّع عليها فتذكّرت أنّي لم أوقّع فاتورة الشاي التي جاءني به يوسف بعد الظهر ، وبينما النادل يهمّ بالانصراف ، توقّف لبرهة كما لو كان قد نسي شيئًا ثم أخرج من جيبه مظروفًا صغيرًا أعطاه لي .

قلت بدهشة متسائلة : لي أنا ؟!

هزّ النادل رأسه بالإيجاب ولم يزد ثم مضى بعد أن حمل صينية الشاي الذي جاء به يوسف بعد الظهر ولم أشربه ، وحياني وهو يغلق باب الغرفة برفق . بقيت حائرة للحظات لا أدري ماذا أفعل ، لكني فتحت

المظروف بعد ذلك بسرعة وقرأت :

"أظنّ أنه يجب أن أراك بعيداً عن الفندق ، أريد التحدث معك ، لن يكون ذلك في مكان عام ، فالمدينة صغيرة ، سنكون معًا في بيتي . غداً سأنتظرك اعتباراً من الساعة الحادية عشر صباحًا . إعطي لسائق السيارة العنوان ، سيحملك إليّ فوراً . أحبك . يوسف" .

قرأت العنوان وقلت لنفسي بغضب : "مجنون أم طفل كبير ؟! ماذا يظنني ؟! امرأة سهلة ؟ امرأة موتورة ؟!" ، لمت نفسي بشدّة لأنّي انهرت وبكيت أمامه ، شعرت بندم لتركي إياه يمسك برأسي في الحمّام ، ثم يضمني إليه بعد ذلك بينما كنت أبكي على السرير ، اغتظت من نفسي جداً ، هذه أول مرة أقع فيها بمشكلة من هذا النوع ، موقف سخيف كهذا، لم يرسل لي أي رجل خطاباً على هذا النحو من قبل ، حتّى قبل زواجي؛ تنهّدت وتذكّرت زواجي ، "أكان هذا زواجًا ؟! زواج في الخامسة عشرة من العمر وكأني خُطفت خطفًا ؟! لكن ما هذه الوقاحة ؟ أذهب إليه في بيته، أيظن أني مأزومة جنسيًا ؟ راغبة في أي رجل والسلام ؟ لا .. فالجنس بالنسبة لي لا يعني شيئًا ، فقد تزوجت وأنجبت ، ولا أعرف حتّى هذه اللحظة ما المتعة الجنسية التي يتحدّثون عنها عادة . لماذا في البيت أيها الوغد الصغير وليس في مكان عام ؟ والله منتهى الوقاحة والتبجح بالفعل!"

رغم غيظي وغضبي ، تمثّلت في مخيلتي صورة وجهه الجميل المترفّع، سلوكه الرقيق الطيب ، لا ، لا يمكن أن يكون وقحًا أبدًا ، "ولكن ماذا يظنّ نفسه "دون جوان" "فالنتينو" ؟! قرأت ذات مرّة أن الشخصيات

الرقيقة من الرجال ، غالبًا ما تكون ذئابًا في صورة حملان ، وأنهم ينجحون في الإيقاع بالنساء بسهولة ، نظرًا للطفهم ورقّتهم التي تجتذب فرائسهنّ الساذجات ؛ ولكن الحقيقة أن يوسف لا يبدو عليه ذلك . حاولت تذكّر أزيار النساء الذين رأيتهم في أفلام السينما ، الرجال المشهورين بعشق النساء لهم ، أنور وجدي ، آلان ديلون ، چيمس دين ، لكن يوسف لا يشبه أيًا منهم ، إنه يبدو جادًا جدًا ، مهذبًا جدًا ، حتى وهو يقبلني كان مهذبًا جدًا. يا إلهي ما هذه الورطة الغريبة التي وقعت فيها فجأة ؟

نسيت آلام حلقي وأوجاع جسدي ، قلت لنفسي : "إنها مسخرة حقيقية والله ، سأمزّق الخطاب وأنزل إلى المطعم لأقول له : عيب عليك أن تتصرف بهذه الطريقة . احترم نفسك يا أخي" .

اعترفت لنفسي بسخافتي ، أنا أكذب طبعًا ، لا أشعر برغبة حقيقية في تأنيبه ، تذكّرت كم ارتجفت ، كم ذُبت وهو يضمّني إليه ، ارتعش قلبي من جديد وشعرت بحيرة تمنّيت أن يضمّني مرة أخرى ، أن أعيش اللحظات التي عشتها معه منذ ساعات قليلة ، لكنّي سرعان ما كابرت وتجاهلت مشاعري هذه وقرّرت أن أضع حدًا للمهزلة قبل أن تبدأ .

كنت جائعة فقمت إلى الصينية وجلست إلى المنضدة التهم الزيتون والخبز ولبن الزبادي ، حتّى المربّى أكلته عن آخره ، ثم بلعت بقليل من الماء المضادّ الحيويّ وفيتامين ج ، وكانت الأفكار المشتعلة برأسي تتأجج نيرانها بمرور الوقت ، وأنا أقلّب المسألة على وجوهها المختلفة بينما كنت أرتشف الشاي الدافيء بحماس ولذّة ، فقد كنت بحاجة شديدة إليه بالفعل.

"تصوري لو نيللي عرفت بأمر ما كتبه يوسف ، ماذا ستفعل يا بنت؟! جنازة وتشبع فيها من اللطم طبعًا ، تصوري لو أن الخطاب وقع في يد صالح صدفة ، بالتأكيد سينزل إلى المطعم في التو واللحظة ويسيّح دم يوسف وتبقى فضيحة بجلاجل" . تذكرت يوم كنت أسير إلى جانبه في شارع طلعت حرب وعاكسني رجل بينما كنا نمر أمام سينما راديو ، وكادت أن تحدث معركة ، لولا أن الله ستر وقصر الرجل الشرّ وخطا الشارع منتقلاً إلى الرصيف الآخر ، بينما كان صالح يكيل له أقذع الشتائم ، فهو رغم هدوء طباعه ، وقدرته على التحكم في أعصابه ، إلا أنه لا يحتمل أيّ شيء يمسّ كرامتي أو يخدش حيائي .

"لكن الموضوع دخل إلى درجة من الفضيحة بالحقيقة ، فلا بد أن زميل يوسف حامل الخطاب خمّن ما في الرسالة ، وربما عرف مضمونها بعد أن فتحها وقرأها ، فما معنى أن يحمل رسالة لي من زميل له ؟ ، يا خبر أبيض يا بنت . كدت أبكي من الغيظ ، سأحزم أمري ، وأذهب إليه في المطعم ، ثم أتحيّن فرصة للانفراد به لأقول له بحزم وجد : أرجوك ، لا تفهمني بطريقة خاطئة ، لست كما تظن ، لا تحاول مضايقتي مرة أخرى ، وإلا تصرّفت بطريقة لن ترضيك أبدًا ، وربما سبّبت لك مشاكل لا داعي لها .

ولكن هل أنت متضايقة ؟ هل أنت متضايقة يا هاجر صفوت في قرارة نفسك وفي أعمق أعماقك ؟ هبي أن صالحًا لم يعرف ولا نيللي ولا زميل يوسف هل ستكونين متضايقة أيتها الكاذبة ؟ . لا ، وألف لا ، مشكلتك ليست فيما فعله يوسف ، لكن في أن يعرف الآخرون ما فعله .

لكن منذ متى وأنا أقبل بأمور حسمت أمرها منذ زمن مضى ؟ هل هذه هي المراهقة الثانية التي يتحدثون عنها ؟ . لكني أشعر أني امرأة طبيعية، أعيش حياتي على نحو عادي ، لست متصابية ، ولا متهافتة على الرجال، إن سلوكي وتصرفاتي لم تتغير وأنا لا أشعر بقلق أو اضطراب، لا .. يجب أن أكون حازمة ، صارمة ، ولا أترك مجالاً للشيطان ليتلاعب بي، ويفسد حياتي ويشوّه صورتي أمام ابني أغلى ما عندي في الوجود، وأمام الناس وكل من هبّ ودبّ" . تعوّذت من الشيطان الرجيم وقرأت سورة "قل أعوذ برب الناس" ، ومددت يدى إلى المظروف لأمزق الخطاب وأرميه في سلة المهملات ، لكن قلبي لم يطاوعني ويدي لم تجرؤ على لمس المظروف وتمزيق ما بداخله . "كم أنا كاذبة ، جبانة ، ضعيفة ! لقد تجسّدت في مخيلتي في هذه الأثناء صورة يوسف ، وجهه ! الذي تمتثل له خلجات قلبي ، يا إلهي كم أحب وأعشق هذا الوجه ! أجل أنا أعشق هذا الوجه الذي أتاني مع تغريد البلبل وسطوع الشمس ، وقبل إغماض جفنيّ لأنام. في كل لحظة أراه متجسداً . على الأقل يجب أن أمتلك شجاعة الاعتراف بهذه الحقيقة ، وليكن قراري مختلفاً ، فأنا لست أول ولا آخر امرأة في الدنيا تقع في غرام رجل . لكن الغرام شيء ، وفعل الغرام شيء آخر . ليكن سأحتفظ بمشاعري لنفسي ، وأحلّ المشكلة بحكمة وهدوء، دون إثارة غبار من الكلام لا داعي له" .

استرحت من اعترافي بالحقيقة لنفسي ، والنتيجة التي توصلت إليها معها ، إذن سأدع العاصفة تمر ، سأفتح التلفزيون وأتفرج على أيّ شيء لأسلّي نفسي وألهيها عن التفكير ، ولأنسى الموضوع قليلاً : عدلت

عن فكرة تمزيق الخطاب ، واكتفيت بوضعه في جيب السترة وأنا أبتسم وأتعامل مع الأمر بمرح وأقول لنفسي : "يا خبر أبيض على عقول الرجال وطريقتهم في التفكير ، ماذا تصوّر يوسف ؟! ببساطة يطلب من واحدة الحضور إلى بيته من خلال كلمات قليلة في ورقة ، ويفرض أنها ستلبي النداء بسهولة وفوراً ؟! ماذا يظنّ هذا الشابُ الصغير ؟!" تنهّدت وأنا أبتسم مجدّداً في سخرية من منطق الذكور وغرورهم ، وقمت إلى التلفزيون لأفتحه فأجد نشرة الأخبار .

أخبار الرؤساء والملوك والزعماء والعسكر ، ضربٌ من البوليس ومظاهرات من الناس ، خلافات في كل مكان من العالم على كلّ شيء وأي شيء ، كل ساعتين يموت طفل في الصومال ، ومثله في أقل من دقيقتين يولد في مصر ، فيضانات تكتسح أكواخ الغلابة ، وناطحات سحاب تناطح بعضها قبل السحاب علوّاً ، ثم كرة قدم ورياضة ، ولا جديد أو مثير فيما قالته المذيعة بجدّية واهتمام ، فالنشرة لا تختلف عن النشرات التي تذاع في بلدي وأشعر معها أنّ الحياة لا تسير ولا تتقدم ، فنشرة اليوم هي نشرة الأمس وهي نشرة الغد ، تفرّجت وذهني مشغول بأحداثي الخاصة ، غيّرت القناة عند بداية النشرة الجوّية لعلمي أنها كاذبة ولا تشير إلى الحقيقة ، خصوصاً في موسم السياحة ، حيث تتمدد أكاذيبها فتزيد درجة الحرارة أيام البرد وتقل في أيام الحرّ ، ليشعر السائحون أن الجوّ بديع والدنيا ربيع بشكل دائم . وردة الجزائرية على القناة الأخرى وأغنية قديمة عن روحها وروحه كما تقول الكلمات ، الكلام جميل ، لكن لماذا لا يطبّق الناس كلام الأغاني ، لماذا

الحبّ عندنا دائمًا سري ويدخل في نطاق الفعل الفاضح العلني إذ ما تمّ إشهاره، ولماذا كلّ هذه الأغاني عن الحبّ طالما نحن نحتقره ونستنكره؟! "لا أعرف ، لكن لماذا لا أسأل نفسي هذا السؤال وأطرحه على حالتي شخصيًا ؟! لماذا لا أواجه الناس بمشاعري التي اعترفت بها لنفسي منذ قليل ؟ ، لا .. لا .. لن أفكر على هذا النحو ، ولن أفعل ما لم أفعله خلال سنوات طويلة فأدخل في علاقة مع رجل من جديد" . لكن وجه يوسف لا يغيب عنّي ، ولا أدري لماذا أنا مشدودة إليه لهذه الدرجة ! هل هذا بسبب السفر وتجربة الانتقال الأولى خارج الوطن أم لأني صرت في مكان غريب عني وأنا لم أبت خارج بيتي من قبل ليلة واحدة ؟

أنا متوترة حقًا ، والتوتر يجعلني أتوهم مشاعر وأفكارًا ورغبة في الإمساك بشيء ، الارتباط بشيء أو الانتماء إليه ، أنا متضايقة فعلاً ، لأنني في قرارة نفسي أحبّ أن أخوض تجربة خاصة ، أن أستمتع باكتشاف كائن مجهول بالنسبة لي ، لكنّي جبانة ، لا أمتلك شجاعة المغامرة . سأترك الأمر يمرّ وكأن شيئًا لم يحدث . كلها أيام أعود بعدها إلى وطني ، وتمر العاصفة بسلام .

جاء صالح بعد العشاء وقال إنه مرهق وسينام فورًا ، كذلك اتصلت نيللي للاطمئنان على صحتي بعد أن أخبرها صالح أني مريضة ولهذا لم أتناول العشاء معهم ، وأبدَتْ رغبتها في زيارتي بحجرتي والجلوس معي بعض الوقت ، لكنّي تذرعت بأن صالحًا سينام ، وكذلك أنا . تأكّد صالح من تناولي الدواء ، وأخبرني أن برنامج الغد سيكون جولة ترفيهية في أطلال مدينة أثرية قديمة ، تعود إلى عصر الرومان وتبعد عن المدينة التي

ننزل فيها حوالي ساعتين بالسيّارة . طلب مني أن أنام جيداً وأستريح حتى أصحبه مع بقيّة أعضاء المؤتمر في هذه الرحلة ، وقال إن تناول الغداء سوف يكون في مطعم شهير بهذه المدينة بالقرب من عيون مياه معدنية رائعة .

شعرت أن هذه الرحلة هي الحلّ السماويّ المرسل إليّ عن طريق صالح، فقلت له إنّي سأذهب بالتأكيد، وإنّي أخذت الدواء، وأشعر بتحسن، وآلام رأسي بدأت تختفي. تحسست بأنامل قلقة خطاب يوسف المدسوس في جيب سترتي وصالح يقول :

– في الثامنة صباحاً تتحرك السيارات من أمام الفندق .

قلت بتأكيد :

– بإذن واحد أحد . أضبط الساعة على السابعة ، حتى نلبس ونستعد على راحتنا وبهدوء.

– طيّب .

قال ونصحني أن أرتدي سترة ثقيلة لأنّ المدينة في الجبل ومن المحتمل أن يكون الطقس بارداً فيها ، ثم دخل الحمّام ليغتسل قبل النّوم.

حمدت الله مرة أخرى على أن الحلّ جاء من عنده ، وأنني سأضطر لمغادرة الفندق مع الجميع في الثامنة صباحاً ، وأن موضوع يوسف سيحلّ بهدوء ؛ ونمت مطمئنة جداً .

يَومُ عَـرُوبَـة

١

استَيْقَظَتْ على صوت صالح وهو يطلب منها النهوض فوراً ، حتى لا يتأخرا عن موعد السيارة ، تقلّبَتْ في الفراش وتثاءبَتْ بكسل ، كانت تشعر بحاجتها إلى مزيد من النوم ، لكن صالحا رجاها مرة أخرى أن تنهض بسرعة لأنّ الساعة بلغت الثامنة إلا ربعًا ، وقد آثر أن يتركها تنام حتى هذا الوقت على الرغم من استيقاظه في السابعة ، لأنها كانت مستغرقة تمامًا في النوم ، حتّى أنها لم تسمع رنين الساعة ولا صوت حركته وهو يستحمّ ويحلق ذقنه ويرتدي ملابسه . ضحك وقال لها :

– واضح أن أعصابك مسترخية تمامًا يا ماما ؛ على فكرة ، منَ المحتمل أن يكون السبب عدم تلوّث الجو وشعورك بالابتعاد عن التوتر في مصر !

لم تردّ عليه . كانت تشعر أن جسدها ساخن وعظامها متكسّرة ، وأنها ليست نشيطة كما يجب . قالت لابنها :

– شاعرة أنّ عندي حرارة وجسمي كأنه زكيبة رمل .

– يا خبر ! طيّب خلّيني أقيس لك الحرارة . قال .

مدّ يده إلى حقيبة يده وأخرج منها ميزان الحرارة ، ثم دسّه في فمها بسرعة بعد أن طهّره بالكولونيا .

بعد ثلاث دقائق نظر إلى مؤشر الميزان بعد إخراجه من فمها وقال :

– درجة إلا أربع شرطات .. لا داعي للانزعاج .

– طيب ، الحمد لله . بسرعة أجهز نفسي ونخرج فورًا . قالت .

ردّ عليها بصوت فاتر وهو يفكّر كما لو كان مهمومًا بأمر ما :

– طيب يا ستّي .

نهضت متثاقلة من السرير ، توجّهت إلى الحمّام ، غسلت وجهها ونظّفت أسنانها ، وبينما هي تهمّ بفتح أزرار قميص نومها لتغسل صدرها ورقبتها جاءها صوت صالح عبر باب الحمام المغلق :

– ماما .. رأيي أنه لا داعي لذهابك إلى الرحلة معي ، أفضل لك الاستراحة في الفندق ، لأنّ من المحتمل تقلّب الجوّ ، وربّما تحوّل إلى برد شديد فتزيد حرارتك وتتعقّد المسألة .

– لا .. لا .. أنا تمام ، ولي رغبة في زيارة المدينة القديمة ، ثم إنّي ناوية ألبس البالطو التريكو الرمادي فوق الفستان ، وألفّ دماغي بشال الصوف . مستحيل أبقى في الفندق وحدي اليوم بطوله .

رجاها قائلاً :

– ماما .. صدقًا لا داعي لحضورك ، خلّيكِ هنا أفضل من التعب وهدّة الحيل ، خلّيك راقدة في السرير اليوم كله ، وخلّي جسمك يستريح ياحبيبتي ؛ الآثار عندنا في مصر على قفا من يشيل . لا أوّل لها ولا آخر. الآثار هنا كلها رومانية ، معبد متهدم ، عمود هنا وحيطة هناك ، لا

شيء يستحق منك الإصرار على الرحلة إلى هذه الدرجة .

أصرّت على الذهاب وصرخت فيه بعصبيّة لم يفهم سببها وهي تقول له:

– هل أنت وصيّ عليّ ؟! قلت عاوزة أروح يعني عاوزة أروح ، وأنت نفسك قلت إنّ الحرارة خفيفة ، تبقى المسألة بسيطة ، ومحتمل أنّ الخروج يحسّن حالتي بدلاً من رقدة السرير يا أخي ! ، يا فتّاح يا كريم.

ردّت عليه بغيظ بينما كانت تجفف قدميها بالمنشفة في الحمام ، فلمّا تبيّن إصرارها وعنادها ، ردّ عليها بحدّة قائلاً :

– بصراحة ، عندك زيادة في الحرارة درجتان ، ومن المحتمل زيادتها بمرور الوقت فتصبح مشكلة فعلاً ، لازم لك أخذ المضادّ كل ستّ ساعات والاستراحة في السرير .. الله.

شعرت بجدّية كلامه ، خافت وسكتت ، ثم أعلنت أنها لن تذهب بالفعل، خصوصاً عندما قال إنّه لن يذهب إلى الرحلة وسيبقى ليراقب حالتها ، وحتّى لا تشعر بالوحدة والملل من بقائها وحيدة في الحجرة طوال النهار . لكنّه خرج بعد أن رجته الذهاب إلى المدينة الأثريّة وعدم القلق عليها ، وسرعان ما نامت بعد تناولها الدواء .

لا تدري أي أحلام حلمت ، وأي كوابيس زارتها ، فقد وجدت نفسها تفيق بعد فترة على أصوات أبواب الحجرات المجاورة وهي تفتح وتغلق ، وأصوات عاملات نظافة الغرف ، وهنّ يتحدثن ويتضاحكن . تثاءبت وجلست في السرير ، ثم نظرت إلى الساعة ، كانت العاشرة والنصف وخمس دقائق .

تذكّرت خطاب يوسف ، بدا لها وكأنه خبر عادي قرأته في جريدة قديمة. اكتشفت أنها بالغت كثيراً في أهمّية وخطورة ما كتبه لها في الليلة الفائتة . اقترحت على نفسها الانتعاش بحمّام ساخن ، لكنها تذكرت حرارتها المرتفعة ، وضعت يدها على جبينها ، فشعرت أن لا شيء يستحقّ القلق ، لكنّ عظامها مازالت تؤلمها إلى حدّ ما وخصوصاً مفاصل ركبتيها ، قررت الاسترخاء في الفراش طيلة النهار حتى وقت عودة صالح من الرحلة ، كما قررت طلب كأس من الشاي وبعض الخبز لتأكله في الحجرة .

خططت لنفسها أن تقرأ خلال بقائها مجلة العروبة ، التي جلبتها معها من المطار في القاهرة ولم تتصفحها حتى الآن ، وأن تقتل بقية وقت النهار بالفرجة على التلفزيون .

طُرِقَ الباب عدّة طرقات ، ظنّت أنها عاملة التنظيف فقالت :

– أدخل . مفتوح .

لكنّ الطرق استمرّ ، فاضطرت للقيام وهي متأففة لتفتح الباب وهي تقول :

– المفروض أن عندك مفتاحاً يا مدموزيل .. افتحي وخلاص .

فتحت الباب ، وجدت أمامها عامل الاستقبال بالفندق يقول لها :

– سيارة الأجرة تنتظرك يا مدام .

أيّة سيارة أجرة ؟! أنا لم أطلب سيارة أجرة ! كادت تقول ذلك ، لكنّها فكرت بسرعة قبل أن تنطق . إذن هو أرسل السيارة أيضاً ، "مجنون ودين النبي". قالت لروحها ، ووقعت في حيرة لبرهة ، لكنها لا

تريد أن يلحظ عامل الفندق ارتباكها ، لا تريد أن يعرف أيّ إنسان شيئًا عن هذا الأمر ، لذلك قالت بهدوء ،

- طيّب قل له أن ينتظر خمس دقائق من فضلك .

خلعت قميص النوم بسرعة ، ثم دخلت في ثوبها المشمشي "الجرسيه"، وارتدت فوقه السترة الصوف التي كانت ترتديها على قميص النوم . لملمت شعرها كيفما اتفّق وأدخلت قدميها في حذاء أسود بلا كعب ، وبعد دقائق ليس إلا كانت تغلق باب السيارة وهي بداخلها تجلس على المقعد الخلفي تغلي من الغيظ والانفعال .

خطّتها التي نسجتها على عجل ، كانت بسيطة جدًا : تذهب بالسيارة إلى وسط المدينة ، ثم تجلس على أي مقهى ، لتتناول شيئًا ، وبعدها تأخذ سيّارة أخرى راجعة إلى الفندق ، وهكذا تمر العاصفة بهدوء .

لكن ما حدث بدأ يثير قلقها ويدخل الرعب إلى قلبها ، فسائق السيارة لم يسألها عن وجهتها ، بل ظلّ صامتًا كتمثال وهو يقود سيّارته بهدوء . فكرت أن تسأله لماذا لم يسألها أين ستذهب ؟! أن تأمره بالذهاب بها إلى وسط المدينة ، لكنها لم تستطع وكأنّ شيئًا قد عقد لسانها وألجمه وجعلها لا تقوى على النطق والكلام . نظريًا فهمت إلى أين ستذهب السيّارة . لكن شعوريًا كان الرعب يشلّها . السائق يدير مؤشّر مذياع السيّارة ، صوت عبد الحليم حافظ يصدح : "اسبقني يا قلبي اسبقني" ، يُهيّأ لها أنها لمحت ابتسامة على شفتيّ سائق السيارة .
وقح ! ماذا يظن ؟ . يجب أن تصرخ فيه وتأمره بالوقوف حالاً ، لكنها بدلاً من ذلك تحتضن حقيبة يدها وتنكمش على نفسها ، وتبدأ في

التمتمة وقراءة "قل هو الله أحد" . توجّست ألا يكون يوسف هو الذي أرسل هذه السيّارة ، محتمل أن تكون عصابة من اللصوص مثلاً . "يا خبر أسود يا هاجر، رحت في داهية". السيارة تجتاز شوارع المدينة ، وروحها لا تجتاز المسافة بين الحياة والموت ، بين التصديق وعدم التصديق وكأنها تتابع مشاهد فيلم سينمائي خرافي ، تحاول إلهاء نفسها ومتابعة مشاهد الطريق . نظرت إلى ساعتها، كانت الحادية عشرة إلا خمس دقائق . السيارة تدخل ضاحية هادئة جميلة معظم بيوتها مكوّن من طابق أو اثنين على الأكثر ، وتحيط بها حدائق نضرة ، لكن ثمت بنايات قليلة عالية نوعًا ، تتوزع هنا وهناك ، توقّف السائق أخيرًا أمام واحدة منها ، ونزل ثم استدار وفتح لها باب السيارة الخلفيّ، مبتسمًا ابتسامة خفيفة ومواصلاً صمته .

سألته عن الأجرة ، نظر إليها نظرة شعرت معها أنّه يخفي وراءها شيئًا ، ثم ابتسم مرّة أخرى بعد أن قال لها إنها مدفوعة ومضى .

سارت في اتجاه البناية ، والسيّارة تبتعد عنها ، حاولت أن تكون طبيعيّة ، البناية تحمل الرقم ذاته للعنوان الموجود بجيبها ، دلفت إلى الممشى الطويل المشجّر المؤدي إلى المدخل الرئيسيّ الموزّع للشقق ، نظرت إلى الأرقام المثبتة أعلى الأبواب ، اكتشفت أن رقم الشقّة المطلوب .. شقّة يوسف ، يقع أمام عينيها مباشرة ؛ تنفّست الصُعداء قبل أن تهمّ بدقّ الجرس ، لكن الباب كان قد سبقها وانفتح قبل ملامسة شاهدها للزرّ الأحمر الصغير .

وجدت يوسف أمامها مباشرة وهو يقول :

– أخيراً .. أخيراً ، بعد ألف سنة جئتِ .

"أنت مجنون ، متهوّر ، مغرور ، ماذا تظنّني ؟! امرأة تلتقطها من الطريق ؟! مهووسة تفتش عن رجل بأية طريقة ؟! من أنت حتى تعطي لنفسك حقّ مخاطبتي بهذه الطريقة ؟ أتعرف أن صالحًا لو عرف بأمر الخطاب لشرب من دمك ؛ لقد جئت هنا لأحدّثك بهدوء وأقول لك إيّاك أن تتمادى في أمور صبيانية من هذا النوع مرة أخرى" .

لم تنطق بأية كلمة من كلمات الجمل الطويلة السابقة ، التي راحت تستعد بها لمواجهته ، وترددها بينها وبين نفسها وهي في طريقها إليه بالسيارة . وقفت كجلمود صخر لم يحطّه السيل من علٍ ، كتمثال رخاميّ مشدود بمغناطيس قويّ إلى الأرض . وقفت تنظر إليه ، فقط تنظر إليه ، مدّ يده إليها ، امسكها وقبلها ، ثم أحاط كتفها بذراعه وسار بها إلى الداخل .

٢

سِرْتُ إلى جانبه كالمنوّمة مجتازين ردهة البيت الفسيحة ، كنت أرتجف وأحاول التماسك كيلا أنهار . أريد أن أكون قويّة ، أن أتحدث بمنطق واضح وأضع المسألة في حدودها ، لكنّ وجه يوسف يكبّلني كلما نظرت إليه ، يشلّ لساني ويحيلني إلى كتلة من العجز فلا أقوى على فعل شيء، ما عدا أن أنظر وأملأ عينيّ اللتين لا تشبعان من رؤية هذا الوجه.

– كنت أعرف أنك آتية يا هاجر . قال وهو يدعوني إلى الجلوس على أريكة تقليديّة الصناعة ويشرع بالجلوس عليها .

ماشاء الله ! ، أيعرف اسمي أيضًا ؟! من أين له هذا ؟ ساءلته بعد أن ساءلت نفسي مستنكرة .

قبل أن يجيب قلت بسرعة :

– يوسف . لقد دفعتني دفعًا للمجيء ، أنا لست كما تظنّ وتتخيل ؛ إنّي أحاول التعامل مع المسألة بهدوء لأنّي لا أريد مشاكل ، لا أريد أن أكون قصّة لا أساس لها من الحقيقة ، ولا رمادًا بلا نار فعليّة .

جذبني إليه ، حطّ رأسي على صدره وهو يقول :

- لا تضيعي الوقت ، لا تفسدي اللحظة بما لا يفيد ، الآن عليك أن تفعلي شيئًا واحدًا ، أن تخرجي من الشرنقة وتطيري ، ثم أولا ، وقبل أن نختلف ، هيا نتفق .

أنا أحبك وأنت تحبينني ، أشتهيك وتشتهينني ، ثم ألا يجب أن نتعارف أولاً؟ أن تعرفيني وأعرفك .

- أنا يوسف بن محمود ، خرّيج فلسفة ونادل في فندق ، ولقد وجدت المرأة التي أحبّها وتحبّني ، وانتظرتها وانتظرتني منذ آلاف السنين .

ضحكت ، وسألته عن حكاية آلاف السنين.

ردّ قائلاً :

- بعد قليل ، سأثبت لك أني انتظرتك منذ آلاف السنين ، ولكن كلّميني عنك بسرعة .

- اسمع يا يوسف ـ قلت بجدّ ـ أنا لم أجيء هنا للكلام عن نفسي ، لكنني جئت لأقول لك لا تفهمني بصورة مغلوطة من فضلك ، ولا داعي لمزيد من المشاكل : أنت أربكتني فعلاً بكتابتك لي، وحكاية السيارة زادت وعطّلت ، أنا يايوسف آسفة ، تصرّفت دون شعور مني يوم بكيت ، وربما أدّى ذلك لأن تظنّ بي الظنون وتفهمني بشكل غير صحيح .

عقد حاجبيه المستويين : حاجبان قلّما رأيت مثلهما في وجه رجل، ولأول مرة أراه متضايقًا هكذا ، كان متضايقًا وليس غاضبًا ، زفر ثم قال:

- أرجوكِ اخرجي من الشرنقة ، لا تهدري الوقت ، أنا أقول لك انتظرتكِ منذ آلاف السنين ، هل تفهمين ذلك ؟

في الحياة توجد لحظات لا يعرف المرء كيف يقيس صدقها ، ثمت شيء خفيٌ بداخل كلٍّ منّا يكون بوصلة للصدق ، شعرت أن يوسف صادق فيما يقول حقًا ، لم يترك صدقه لي مجالاً كي أقول المزيد ، فحدثته عن نفسي قائلة :

– يوسف .. أنا أرملة منذ كان عمري ثمانية عشر عامًا ، وأمْ منذ السادسة عشر ، وموظفة منذ ما يزيد عن عشرين عامًا . هذا كل شيء عني .

– وأيضًا ؟ قال .

– وأيضًا ؟! لا أعرف ماذا تقصد بأيضًا .

– مثلاً لماذا لم تتزوجي مرّة أخرى ، لا تقولي : "حتى أتفرّغ لتربية ابني" ، ولا تقولي لأنك تفضلين العلاقات الحرة بدون ارتباط . فلا يبدو عليك أنك من ذلك النوع .

دُهشْت ! هو يريد محاصرتي لأعترف ، يقطع الطريق عليّ حتى لا أقول إلاّ الحقيقة .. أجبته بهدوء :

– فعلاً يا يوسف ، كان لي سببي الخاص ، سببي الغريب جدًا ، الذي حال بيني وبين الرجال ، سبب يصعب أن يفهمه أيّ إنسان آخر غيري .

– أنا سأفهمه بلا شك . قال .

ترددت قليلا قبل أن أحكي له ، فأنا لا أحبّ الحديث عن حياتي الزوجيّة القصيرة ، سيرتي خلالها لا تبعث في نفسي إلاّ الآلام . لقد سرقني زوجي وخدعني ، سرقني من صباي وشبابي الأول ، واغتالني

في عزّ نضارتي وتفتحي . تذكّرت كيف تمّ زواجي منه . تذكّرت يوم جاء مع أمّه وأبيه لخطبتي ، وفرحة أمّي وأبي به ، الزوج اللقطة الذي لن يجود الدهر علي مثلي بواحد مثله مرّة أخرى ! عودتي من المدرسة ذلك اليوم لأجدهم في بيتنا ، تدخلني أمّي عليهم بالشراب المثلّج ، فتأخذني أمّه في حضنها وتتحسس جسدي ، صدري وأردافي ، ثم تطلق زغرودة طويلة تسري معها قشعريرة في جسدي إذ أدرك حقيقة ما وراء هذا الصوت الطويل الهستيري المفزع . تذكّرت ليلة زفافي ، اقتحامه لجسدي وقضاء وطره مني ، دمي النازف على الفراش .

لا لا أريد هذه السيرة ،لن أحكي شيئًا .. لن أقول له ما يودّ سماعه مني، قررت إعطاءه ملخصًا موجزًا لأنهي الموضوع فقلت :

– يا سيدى ، زوجي كان صيدليًا ، يمتلك صيدلية في ضاحية راقية من ضواحي القاهرة ، وهو من أقرباء أمي الأباعد ، رآني مرة في عُرس عائلي ، وكنت وقتها في الخامسة عشر من عمري ، فأعجب بي وتقدم لخطبتي ؛ وافق أبي وفرحت أمي ، فقد كان غنيًا ، يمتلك أرضًا ، ولم يحل عمره البالغ أنذاك خمسة وثلاثين سنة دون الموافقة الأسرية عليه وإتمام زواجنا .

تابع كلامي باهتمام ثم قال :

– لكن وفاته لا تكفي ذريعة لعدم ارتباطك وزواجك من رجل أخر بعده؟

تساءل فتنهدت وأوضحت :

– خلال سنة زواجنا الأولى اكتشفت مدى عنفه معي ، فهو عصبي

يعنّفني لأتفه الأسباب ويعاملني بصرامة ويغار عليّ غيرة فظيعة ، وعندما كنت أشتكي لأمي ، كانت تطيّب خاطري وتقول لي إنه يحبني ، وبصراحة كنت أخافه وأهابه وأتميّز غيظًا عندما يتركني وحيدة ، كلّ عدّة شهور ، ليسافر إلى أوروبا بحجّة العمل واستيراد أدوية خاصّة لا تُنْتَجُ في مصر.

– بالطبع كان على علاقة بنساء أوروبّيات . قال .

زفرت بحرارة وأنا أتذكّر تلك الفترة البعيدة القريبة من حياتي ، واستطردت قائلة :

– تصوّرت مثلك أن الأمر هكذا ، وليته كان ، فبعد عامين من زواجنا مرض مرضًا شديدًا لم يمهله ، وبعد وفاته اكتشفت بالصدفة ، بينما كنت أقلّب في أوراق كان يحتفظ بها في درج مكتبه ، أنّه كان مريضًا مرضًا خبيثًا يستلزم تغيير دمه كل عدة شهور ؛ كان مدركًا لحقيقة أن حياته قصيرة ولا رجاء فيها ، لكنّه تزوجني دون أن يبوح لي بسرّه ؛ كان يريد وريثًا فقط ، طفلاً يحمل اسمه ويحفظ ثروته بعد وفاته ، وربما كان ذلك وراء تغيّر معاملته لي بعد إنجابي صالحًا ، الذي كتب له معظم ثروته ولم يترك إلا القليل منها ، خوفًا من زواجي بعد مماته ؛ لكنّ عمّ صالح وضع يده على الأرض ومعظم أملاك زوجي وراح يتحكّم فيها ، وبيننا وبينه قضايا ومشاكل في المحاكم لم تنته حتى الآن .

– آه ، من هنا كانت طريقتك الحزينة في النظر ، وملامحك المعبّرة عن اليأس دائمًا . تنهّد ونظر إليّ بتمعّن ، ثم اقترب مني وأحاطني بذراعه رابتًا على كتفي ، واقترح أن يعدّ قهوة نشربها معًا ، ودعاني

للذهاب معه إلى المطبخ لنتحادث في هذه الأثناء .

ولجت معه إلى المطبخ . اكتشفت أن البيت صغير ، حجرة واحدة واسعة إضافة إلى الردهة التي كنا نجلس فيها ، لكن رغم ذلك فكلّ شيء في البيت مرتّب نظيف ، ينم على حسن ذوق صاحبه . الكتب تتناثر في أماكن كثيرة ، حتى في المطبخ المحتوي على منضدة صغيرة وكرسيين ودولاب خشبي مدهون بالأبيض معلّق على الحائط . وضع شريط موسيقى في المسجل الموضوع على المنضدة ، ووقف أمام الموقد يعدّ القهوة ، تأملته من الخلف ، جسده نحيل وظهره مستقيم مفرود تبرز سلسلة عموده الفقري تحت قميصه الأبيض بوضوح . اعترفت لنفسي : "ما أجملك يا يوسف ! ، أنا أحبك وأشتهيك فعلاً . ماذا أفعل يا ربي؟" وقفت خلفه ومددت يدي ولامست شعره الفاحم ، دسست أنفي في ظهره وتنشّقت رائحته عبر القميص الأبيض الشفيف الذي كان يرتديه وهمست:

- أحبك يا يوسف .

ترك القهوة على الموقد وأطفأ شعلة الغاز ، ثم استدار واحتوى بعضنا بعضًا . كان يضغط بذراعيه على جسمي ، وكنت أحاول احتواءه بداخلي.

ارتجفنا ارتجافة المطارد بالصقيع ، وأخيرًا عثرت الشفاة الوالهى على بعضها ، وضِعْنا في قبلات طويلة ممتدة عرفت معها ما ذا يقصد بآلاف السنين.

تباعدنا قليلاً ولم ننطق بكلمة ، راح يستكمل إعداد القهوة ، ثم وضع

وعاءها النحاسي والفناجين الخزفية على صفحة خشبية محفورة ، وعندما عدنا إلى جلستنا الأولى في غرفة الاستقبال قال :

– هل تدركين لماذا أحبّ كل منّا الآخر ؟ لأن ذاكرة جسدينا الكامنة استيقظت فجأة عندما التقينا ، فمنذ آلاف السنين تكونت "جينات" رجل له صفات "جيناتي" أحب امرأة لها صفات "جيناتك" ، ولهذا تحاببنا منذ الوهلة الأولى، إذ انتقلت ذاكرة "جينات" الرجل الذي عاش في الماضي البعيد إلى "جيناتي" ، وذاكرة "جينات" المرأة القديمة إلى "جيناتك" فتحاببنا ، وعشق كل منا الآخر .

– يا سلام ! . قلت وضحكت .

– بالطبع يصعب عليك تخيّل هذا والاقتناع به ، ولكن ما تفسيرك لما حدث بيننا ؟! أنا مجرّد نادل في مطعم ، وأنت زوجة لصيدلي متوفٍّ وأمّ لطبيب ؛ عمري أصغر من عمرك بكثير ، فلماذا أعشق امرأة في سنك . إن ذاكرة "الجينات" كانت أقوى من كل هذه الأمور ، فانجذبنا لبعضنا و..

قاطعته قائلة :

– على فكرة يا يوسف ، كم سنة عمرك ؟

– ثمانية وعشرون . أجاب .

ابتسمت بمرارة ، إذ أنّ معنى هذا أنّه يكبر صالحًا ابني بسنة واحدة لا غير. وماذا كنت أظنّ ؟ ، واضح أنّ عمره لم يتجاوز الثلاثين ما أفظعني امرأة ! فإما أن أكون قد غررت بشابّ في عمر ابني ، أو أنّ شابًا في عمر ابني غرر بي ؛ أنا لا أعرف أيهما أدقّ في الحقيقة ، لكن

أية حقيقة تعنيني الآن غير أنّي أحبّه ؟ أعيش مشاعر لم أعشها من قبل أبداً . أنا حائرة لا أدري ماذا أفعل بالضبط ؟!

حمل يوسف فنجان القهوة وقدّمه لي وهو يتأملني وأنا غارقة في أفكاري ، سألني أن أقول له عما أفكر فيه خلال هذه اللحظات ، فصارحته بما كنت أحادث به روحي ، دون زيادة أو نقصان . رفع يدي وضمها بين يديه وقال :

- في كل النظريات والتحليلات ، مستحيل أن تنشأ علاقة سوية حقيقية بيننا ، لكن استخدمي نظرية ذاكرة "الجينات" وستجدينها معقولة جداً وقادرة على تفسير حالتنا .

قلت لنفسي وأنا أرتشف القهوة اللذيذة : "لا يا فيلسوفي الصغير ؛ ليست نظرية "الجينات" ولكنها نظرية الصدق" . لم أكن أبحث أبداً عن رجل أعتقد فيه الصدق ، بعدما اصطدمت في مطلع حياتي برجل الكذب، فكلّ الرجال باتوا في نظري كاذبين ، مخادعين ، مثل رجلي الذي مات وهو يعرف أنه سيموت ولم يكلّف خاطره بمصارحتي أو مواجهتي ، بل تزوجني ليجعلني أرملة مع سبق الإصرار . اختارني لأكون ذريعة لامتداده في الحياة . وعاءً كنت أنا للحفاظ على نوعه من الانقراض ، وأداة انتقاها ودفع ثمنها لتكون معبراً للذاكرة إليه بعد موته .

زفرت بشدّة وخَطَرَت في خاطري فكرة فسألت :

- كم امرأة أحببت قبلي يا يوسف .

- ولا واحدة . أجاب .

لم أصدّقه في الحقيقة ، ويبدو أن ذلك بان على وجهي ، فأردف قائلاً:

- احبّتني نساء كثيرات منذ بداية طلعتي ، زوجة أبي على سبيل المثال أحبتني جدًا ، كانت إنسانة طيبة ، أغدقت حنانها وعطفها عليّ ، ولم تحاول إغوائي ؛ رحمها الله ورحم أبي أيضًا .

- إذن أنت بلا أسرة أو عائلة . تساءلت وتحسّرت .

- تقريبًا . لي أخت وحيدة من أبي ، تزوجت منذ سنوات ، لكن العلاقة بيننا ليست قوية على أية حال ، لأنها رُبّيَت في بيت خالتها منذ صغرها ، بعد أن تبنّتها هذه الخالة عقب وفاة والدي وزوجته فجأة في حادث سيارة، كنت وقتها في حوالي السابعة عشرة ، فبقيت في دارنا ورحلت أختي الصغيرة مع خالتها.

كيف عشت وتربيت وتعلمت ؟! كيف تأكل وتشرب ، من كان ينفق عليك؟! أردت أن أسأله أسئلة كثيرة ، لكني صمتُ ، وصمت هو .

أخرجت علبة سجائري والولاعة ، وبدأت أشعل سيجارة ، سحب يوسف الدخان والسجائر من يدي بهدوء وقال :

- قلت لك اخرجي من الشرنقة ، لكنك لم تسأليني ما الشرنقة ؟.

- طيّب ما الشرنقة ؟ . ضحكت وسألته .

- فكّري أولاً . ردّ.

- لا أعرف . ضحكت مرة أخرى وأجبت .

- الأوهام .. كلّ الأوهام التي نعيشها ، والأكاذيب التي نغلّف أنفسنا بها . قال ، ثم رفع علبة السجائر بيده وأضاف :

- هذه مثلاً ، أحد خيوط الشرنقة، وهم من الأوهام التي نعيش فيها.

لم أردّ . يبدو لي هذا الشاب غريبًا بعض الشيء . نادل في مطعم ،

وعنده أكوام من الكتب ، ثم الخطاب الذي أرسله لي ، سيّارة الأجرة ، شعرت بالارتباك والغيظ من جديد عندما تذكرت حكاية الخطاب والسيّارة ، فسألته عنهما بغضب فقال :

– تتصرفين ، وكأن شخصًا يراقبك أو يطاردك ، الحكاية ببساطة أنني قلت لزميلي إنّ الخطاب من أصدقاء لك هنا .

– من المحتمل أنه فتحه وقرأه . رددت عليه بسرعة .

– مستحيل ، لأنك لست مركز الكون يا سيدتي كما تظنين ، لا أحد يهتمّ بك إلى درجة التفتيش في خطاب صغير مرسل إليك ، أما السيّارة فقد طلبت من السائق إيصالك إلى هنا ، خوفًا من أن تضلّي الطريق ، أو تكوني قد ضيّعت العنوان ؛ ما الغريب في كل هذا ؟

ثم أمسك بيدي فجأة وقال :

– تعالي ، أريد أن أريكِ شيئًا .

مشينا معًا إلى الغرفة الوحيدة في البيت ، لا شيء فيها سوى بساط من الصوف يغطي الأرضيّة تقريبًا ، وقد زُيّن بنقوش بدويّة صحراويّة ، وفوق البساط حاشية سرير عريضة مغطاة بمفرش أبيض ناصع . كانت ثمت كتب متناثرة في أركان الغرفة ، وفوق خزانة الملابس القديمة ذات المصراع الواحد ، والتي ثبتت على اتساعها مرآة كبيرة . مكثتُ واقفة على باب الغرفة ، بينما دخل يوسف وفتح الخزانة ثم أخرج منها علبة خشبية محفورة ، عاد بها وقال وهو يفتحها :

– انظري .. رائعة !

قطعة صغيرة من الحجر الناريّ الملوّن ، مثقوبة ومضمومة في خيط

أسود سميك . كنت أضحك لمرآها واهتمامه بها ، لكني وجدته جاداً وهو يقول :

- هذه أعز ما أملك في الحياة ، أهديها إليكِ . الشيء الوحيد الذي ورثته عن أمّي .

ثم تابع كلامه قائلاً :

- هيا نقيم حفلة صغيرة بمناسبة هذا الإهداء .

تركني حائرة ، مندهشة ، واقفة عند باب الحجرة وقطعة الحجر ذات الخيط في يدي . ذهب إلى المطبخ ، وعاد حاملاً بيديه كوبين وزجاجة نبيذ أحمر . ملأ الكأسين وناولني واحداً ، وقال وهو يرفع كأسه ويلامس به كأسي الذي كنت قد رفعته أيضاً .

- في صحة جيناتنا العبقرية .

رشفت قليلاً من النبيذ ، وذهب بعد أن فعل مثلي وعاد بصفحة عليها أطباق اللوز والزيتون الأسود والأخضر ، ثم قال :

- تعالي لنرى كيف يكون شكل هذه التعويذة على صدرك .

رجعنا إلى جلستنا الأولى على الأريكة ، ووضع على المنضدة ما يحمله، ثم راح يخلع سلسلتي الذهبية ذات الدلاّية المحفور عليها "ماشاء الله" والمعلّقة في صدري ، وضعها في يدي ، ثم علّق قطعة الحجر في صدري بدلاً منها . وأخذ ينظر إليّ ، كنت حائرة ، مرتبكة ، لا أدري هل أسرّ وأشكره ، أم أغضب وأقول له : "كفي لعب عيال" . أسقط في يدي وابتسمت مجاراة لابتسامته ، مسح على خدي ولامسه بشفتيه ثم عاد إلى مكانه بجانبي .

قلت لنفسي بوضوح : هذا الشاب أفّاق ، أو ممثل ماهر ، أو مجنون، وسوف تتضح الحقيقة بعد قليل .

كانت الموسيقى قد انتهت ، قلت لروحي : لن أشرب الكأس كاملاً ، فأنا أدوخ بسرعة ، ولا أريد أن أفقد وعيي إضافة إلى أنّي أخذت المضادّ الحيويّ قبل خروجي ، ولا أريد إبطال مفعوله بالكحول . لاحظت أنه شرب كأسه بسرعة، وأن وجنتيه تشرّبتا بالحمرة قليلاً فأصبح وجهه متألقًا ساحرًا ، ويبدو أنه لاحظ أنّي ألاحظه فقال :

– هل لديك خطّة بخصوص ما ستفعله خلال الساعتين المقبلتين ؟.

فوجئت بالسؤال ونظرت إليه بدهشة ولم أردّ . أضاف :

– طيّب ، هل لديك خطة لما سوف تفعلينه خلال الشهر القادم ؟ .

أجبت ضاحكة :

– سأفعل ما كنت أفعله طوال السنوات الماضية بالطبع . أذهب إلى العمل عند الصباح وأعود ظهرًا ، أنتظر صالحًا حتى يعود من الجامعة ، ونتناول الغداء ، ثم يذهب إلى عمله المسائي ، وأمضي فترة بعد الظهر في قضاء شؤون منزلية مختلفة حتى يعود .

– لا .. لن تفعلي ذلك بعد الآن أبدًا . قال بهدوء .

خفت حقًا ، وداخلتني قشعريرة ، وأنا أنظر إلى عينيه الملتمعتين بالغرابة بينما كان يقول ذلك . هذه البلاد مشهورة عندنا بالسحر والسحرة، ويبدو أنني وقعت في براثن واحد من هؤلاء السحرة ، أريد أن أهرب من هذا المكان ، أن أرجع إلى الفندق فورًا ، كان يجب ألا آتي ، حاولت الانسحاب بكياسة ولطف فقلت :

– يوسف ، هل أنت في إجازة اليوم ؟

في إجازة حتى السابعة مساءً ، سأعود إلى الفندق بعد عودتك إليه .

– لكني لن أبقى حتى المساء . قلت موضحة .

– سنبقى معًا حتى تغرب الشمس . ردّ بهدوء :

– لا .. لن أستطيع ، صالح سيعود من الرحلة ، وإن لم يجدني سيقلق، ومن المحتمل أن يكون قد اتصل هاتفيًا بالفندق ولم يجدني ، وهو يتساءل أين ذهبت؟ .

– لا تفكري في ذلك الآن ، صالح لن يسأل ، والمدينة التي ذهب إليها لا يمكن العودة منها قبل المساء .

بحركة لا إرادية رفعت كأسي وارتشفت رشفة كبيرة من النبيذ ، بدأت أشعر بارتخاء في أعصابي ، فخلعت حذائي وتركت قدميّ حافيتين على الأرض . قام يوسف بسرعة وحمل حذائي بعيدًا فوضعه في المدخل قرب الباب، ثم عاد بخفّ رجالي أبيض رقيق وضعه في قدميّ ؛ خجلت وانحنيت لأمنعه ، لكنّي وجدت وجهه قريبًا من وجهي ، وعيناه في عينيّ ، فلم أر نفسي إلا وأنا أحوّطه بذراعيّ ، وأضع رأسه في صدري وأقبّله بشدة ؛ نهض فجأة وحملني بسرعة ووضعني على الحاشية في الغرفة الوحيدة في البيت .

لا أعرف كم من الوقت مضى علينا ، ونحن غارقان في غيبوبة الجينات . يوسف لا يشبع وأنا لا أرتوي ، استنفدنا كل طاقة ممكنة في جسدينا وروحينا، كان يتحسسني ويضمّني ، كما لو كان يضمّ آلهة مقدسة ، وكنت كعروس صغيرة في ليلتها الأولى مع حبيبها الأثير ، لم

أشعر بشعور كهذا الذي عشته الآن من قبل أبدًا ، بتّ أشكّ أنني تزوجت وعاشرت رجلاً قبل هذه اللحظات ، إذ اكتشفت كل تلك الطاقة الكامنة المختبئة في جسدي ، جسدي الذي استنطقته بكل اللغات الممكنة حتى لغة الغناء ، فغنينا معًا أغنية عشق طويلة امتّعتنا وأسكّرتنا حتى الانتشاء . إذن هذا هو العشق ، وهذا هو الغرام الذي لم أعرفه من قبل طوال حياتي ، هذا هو الرجل الذي انتظرته منذ آلاف السنين ، وهذا هو الجسد الآخر المدفون في جسدي ينهض من رقاده ويستفيق فاكتشف وجوده ، وأكتشف معه المرأة الأخرى التي هي أنا ، المرأة المجهولة التي لم أعرفها من قبل .

اعتدلتُ جالسة في الفراش ، سحبتُ المفرش الأبيض على جسدي لأتغطّى . كان يوسف مستلقيًا على ظهره ، عاريًا تمامًا يحدّق في السقف.

مرّ بأنامله على سلسلة عمودي الفقري وقال متسائلاً :

– كم مرّة سنفعل ذلك معًا بالطريقة ذاتها ؟ .

لم أردّ ، كنت أفكّر في صالح ونيللي وزوجها الدكتور إبراهيم ، كنت متوجّسة وداخلني شعور بضرورة العودة إلى الفندق سريعًا .

– لماذا لا تجيبين ؟ سألني .

قلت دون أن أغيّر من جلستي وأنا أحاول لمّ شعري بيدي وإبعاده عن وجهي إلى الخلف :

– لا أعرف يا يوسف . لماذا تسأل ذلك الآن ؟! أظن أننا لن نفعل ما فعلناه الآن مرة أخرى ، لأنني سأسافر بعد أيام قليلة .

اعتدل في جلسته ، ومسّد بأصابعه خصلات شعره المنسدلة على جبينه ، ثم لامس كتفي العاري بيده والتصق بي بينما راح ينظر إلى قطعة الحجر المعلقة في صدري وقال :

– لا تفكري هكذا .. لا تفكري أفكار الشرنقة إياها .

ثم أشار بيده إلى المرآة الفسيحة المثبتة أمامنا على الخزانة وقال :

– انظري كم نحن منسجمان ، متوائمان ، بمرور الوقت سنزداد تشابهًا ، سيقول الناس عنا إننا توأمان ، خرجا من رحم واحد ما رأيك؟.

نظرت في المرآة ، في الحقيقة لم أجد تشابهًا ؛ يوسف فتى وسيم يتفجّر وجهه بحيوية الشباب ، أما أنا فثمت تجاعيد خفيفة حول عيني ، وشحوب في بشرتي السمراء ، عيناه واسعتان داكنتان ، وعيناي ضيّقتان نوعًا لونهما عسليّ فاتح تظللهما هالات داكنة ، تأملت فمي ، أنفي ، تجاعيد رقبتي الخفيفة وتنهدت .

قطع صوته استرسالي في تأمّل ملامحنا المنعكسة على المرآة ، والمقارنة التي أعقدها بينهما ، بيني وبين نفسي وقال :

– عندما نتزوج سآتي بمصوّر محترف فنان ليصورنا كما نحن الآن في المرآة بالضبط ، فقط سأضع فوق رأسك إكليلاً من زهور الياسمين ، وستكون هذه صورة زفافنا التذكاريّة ، التي سنعلقها في غرفة الاستقبال.

– نتزوج ؟! تساءلت بدهشة واستغراب ، واستطردت متسائلة :

– لا أعرف كيف تفكّر يا يوسف ؟! ، ما الذي يدور برأسك ؟! أنت

تتعامل مع الحياة والأمور ببساطة غريبة ؛ نحن لم نتعرّف إلى بعضنا إلا منذ وقت قليل. أنت صغير السنّ حقًا ، لكنك لست نزقًا ولا مندفعًا على ما أظنّ وأتصور .

أسقط الملاءة عن جسدي بهدوء فصرت مثله عارية تمامًا ، نظر إلى جسدي وقال :

– أعرف أنك تفكرين على هذا النحو ، الآن ، وقبل الدخول في أية مناقشة، تعالي نخلق أبجدية مشتركة بيننا حتى نستطيع النقاش ، الاتفاق أو الاختلاف.

ثم رفع إصبعه إلى شعره وسألني :

– ما هذا ؟

– شعر ! .

– وما هذه ؟

– عين ! .

– وهذا ؟

– أنف ! .

– وهذا ؟ وهو يشير إلى عورته ! .

صعقت من سؤاله ، لم أردّ عليه بالطبع ، واصل كلامه بانفعال :

– طبعًا لن تسميه ، لن تسمي ما لم تتعودي على البوح باسمه . لن تنطقي اسم قدس الأقداس المجلل بالأسرار ، الذي عبدناه ذات يوم وما زلنا عبيدًا له ، سرّ تخلّفنا وانحطاطنا ، مبعث فُصامنا الاجتماعي وجبننا الأخلاقي ، أخلصنا له من الليل إلى الليل حتى التهم نهاراتنا ،

وغيّب شمس حضارتنا ، فسقطت بغداد والقاهرة ، وراحت الأندلس كلها ، كان الغُزاة على الأبواب ونحن لاهين معه ، لا يشغلنا عنه في الدنيا شاغل . هذا يا سيدتي اسمه ..

وضعت يدي على فمه بسرعة قبل أن ينطق ، وأنا أقول له :

- أرجوك ، كفّ عن الكلام بهذه الطريقة . أنت لا تفهم وضعي وظروفي ، وتتعامل مع الحياة بفلسفتك الخاصة . الحياة شيء مختلف عن الأفكار يا يوسف ، الكلام شيء والفعل شيء آخر .. و ..

قاطعني بسرعة وقال بحماس :

- هذه هي مشكلتنا بالضبط ، لا علاقة للأفكار ، لا علاقة للفلسفة بحياتنا ، لأننا لا نفكر ، لا نتخيل السؤال ، نعيش بأفكار من سبقونا ، بأفكار القطيع ، قطيع قديم هزيل لا يسمن ولا يغني من جوع . لقد شرحت لكِ كيف انتظرتكِ منذ آلاف السنين وأنتِ كذلك ، وها قد تلاقينا وامتزجنا امتزاج الروح بالروح ، والجسد بالجسد . أنتِ لم تأتي هنا بالصدفة ، وأنا لم أعمل في هذا الفندق صدفة ، وعشقنا لم يكن وليد الصدفة . لقد كدت أترك العمل في هذا الفندق أربع مرات ، كان يبقيني سبب واه ، فأستمر في عملي ، وعندما رأيتك فهمت لماذا بقيت في هذا المكان ، وأي شيء بداخلي كان يدفعني لانتظارك .

أمسكني من كتفي ونظر إلي بجد ، ثم استطرد قائلاً :

- هل تظنين أنك المرأة الأولى التي اهتمّت بي ووقعت في غرامي ، لقد مرّت عليّ عشرات النساء وأنا أعمل في هذا المكان ، نساء من جميع أنحاء الأرض ، شقراوات ، سمراوات ، فتيات صغيرات ، ونساء

ناضجات كثمار الصيف المشتهى قطافها . مرّة جاءتني شابة سويدية جميلة ، قالت لي وهي تغادر المطعم بعد العشاء إنها تتمنّى شيئًا واحدًا: أن تقبّلني ، ولا شيء آخر ، لكني لم أتركها تقبّلني بالطبع .

أعرف أنني وسيم يا هاجر ، تشتهيني النساء ، لقد عرفت نساءً قبلك، بل واغتصبتني نساء في مطلع شبابي . لكني لم أعرف امرأة أحببتها غيرك ، وأنت لم تعرفي رجلاً غيري . أرجوك اخرجي من الشرنقة ، أقولها لك مرة أخرى .

لا أعرف ماذا أقول له ، هو يطلب مني المستحيل ، يطلب أن أتزوجه ، أشعر وكأن سطلاً من الماء البارد قد صُبّ على رأسي . لقد وقعت في حبائل شابّ غريب، ربما كان مريضًا نفسيًا . أعرف أن هناك مرضًا نفسيًا يجعل الشبان يقعون في غرام نساء بعمر أمهاتهم ، وهو يتيم الأمّ منذ زمن بعيد ، ربما كان واحدًا من هؤلاء المرضى . لكن ماذا عن حالتي؟! ألست مغرمة به أيضًا ؟! ألست مفتونة بشبابه منذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها ؟! لوهلة شعرت أنّ من الممكن أن يغتالني أو يقتلني لو قلت له لا واضحة ، صريحة ، مباشرة . عليّ أن أختار كيف أقولها .

تصورت لو قلت لصالح أنني سأتزوج نادلاً في فندق ، لو عَرِفت نيللي والدكتور إبراهيم ، وزملائي في العمل ، وجيراني في السكن ، وأهلي ، وأقاربي، ماذا سأسمع : خسئتِ ، تفوه ، مجنونة ، عجوز متصابية فقدت عقلها في آخر زمانها من شدّة الكبت الذي عاشته بعد وفاة زوجها. لم تراعِ مركز ابنها ولا مشاعره ، ولا سمعتها . وليّة مخّها خفّ

وطار ، مبتذلة.

آه يا يوسف ، قلت وأنا أزفر بشدة .

– أعرف ما الذي يشغل بالك : تفكّرين بمنطق القابع في الشرنقة ، المغلّف بخيوط الأكاذيب والأفكار والأوهام المصنوعة والمختلقة التي تكبّله. أنت تنتمين لعالم الأكاذيب ، التي لفرط ما تداولناها وتعاملنا معها بتنا نظن أنها حقائق ، لكنك معذورة ، فكم من الوقت أضاعت البشريّة حتّى اقتنعت أن الأرض تدور حول الشمس ، وأنها كرويّة وليست مسطّحة ؟ أنت تنتمين إلى الأكاذيب ولا تنتمين إلى نفسك . أنت تفكّرين في ابنك ومركزه ، وظيفتك وصورتك أمام الناس. اسمعي أنا أعمل نادلاً ، لكني تخرجت من الجامعة بعد أن درست الفلسفة ، طظ في الفلسفة ، ما الفلسفة ؟! أوهام وأكاذيب طالما أنها لا تغير حياة الناس ولا تفعل فيهم فعلها، طالما بقيت في أروقة الجامعات حبرًا على ورق يلوكه الطلاب كلامًا على ألسنتهم ولا يقترب بأي شكل من أفعالهم . عندما كنت أذهب إلى الجامعة وأشاهد الأساتذة يتخبّط كلّ واحد منهم في خيوطها كنت أضحك ، لأن الخروج منها ممكن ببساطة ؛ يكفي تقطيع هذه الخيوط الواهية للطيران ، بل للتحليق عاليًا ، هل تظنين أني سأشتغل بالفلسفة ؟ أبدًا . ورثت عن أبي قطعة أرض في الجبل ، قطعة صغيرة ، سأبني على جزء منها بيتًا صغيرًا نعيش معًا فيه ونقوم بزراعة الجزء الباقي . ستكون حياتنا جميلة يا هاجر ، سنكون كائنات حقيقية خارج شرنقات الأوهام ، التي يجبروننا على الحياة فيها . لن يكون لدينا مذياع ولا تلفزيون ، ولن نقرأ صحافتهم الوسخة ، سنكتفي بقراءة لوحات الطبيعة

كلّ يوم ، ونستمع إلى أصوات الكائنات وصوتيّ روحينا اللتين يريدون خنقهما وقتلهما ، لا تدعي الأوهام تفترسنا والوقت يسرقنا ، كوني واقعية ، حقيقية يا هاجر .

تنهّدت ، كنت مندهشة ، إذ اكتشفت كم هو صادق ، حالم ، مثاليّ ، يتخيّل أشياء مستحيلة الحدوث ، وينسى اعتبارات كثيرة في الحياة ، وفي اي عالم نحن نعيش .

قلت بهدوء :

– انت خيالي خالص يا يوسف ، تتصور اني ببساطة أستطيع التخلّي عن صالح وتركه لأعيش معك ، صالح ليس لديه أحد في الحياة غيري ، صحيح أنه على وشك الزواج ، لكنّي أمّه ومستحيل أن اتركه مهما كنت أحبك ، لا يمكن أن أكون أنانية لا تهمّني إلا رغباتي وسعادتي.

– إذن ، عندما يتزوج دعيه يأتي بزوجته ليعيشا معنا ، قال .

"يا ربي : أي طفل كبير هذا الذي ينطق الآن ؟! إنه لا يفهم ! " قلت لنفسي ثمّ ابتسمت وقبلته في جبينه وأنا أقول مبتسمة :

– مستحيلة يا يوسف أفكارك ! ، أنت خيالي جداً .

قاطعني بضيق :

– إذن ما تصوّركِ عن المستقبل ، لقد سألتكِ عما ستفعلينه خلال الشهر المقبل .

– لا أعرف ، أجبته ، وكنت أعرف بالطبع .

قال وهو يكزّ على أسنانه ويعقد ما بين حاجبيه :

– إذن لماذا جئت ؟ لماذا فعلنا ما فعلناه معًا ؟ أنت غير جادّة إذن ، جئت لتتسلي ، لتؤكدي لنفسك أنك ما زلت مرغوبة من الرجال ، رغم عمرك، ورغم كل شيء ترغبين في قضاء نزوة عابرة تستكملين بها متعة السفر إلى هذا البلد . تخوضين مغامرة مع شابّ صغير قد لا تحدث لك مرة أخرى .

فارَ دمي ، صعقتني وقاحته وقدرته على التجريح ، شعرت بإهانة لا حدّ لها "كيف يجرؤ هذا الفرّ على مخاطبتي بهذه الطريقة ؟!". وجدتني رغما عني ، بدون أن أتمالك نفسي ، أرفع يدي بسرعة ، وأصفعه على وجهه صفعة قوية لخّصت كلّ ردّ يمكن أن أردّ به عليه .

نظر إلي بهدوء . قام بسرعة وألقى إلي بملابسي ثم قال :

– ارتدي ملابسك .. سأذهب لأحضر سيارة تعود بك إلى الفندق .

ارتجفت ، شعرت أنني سأذهب في إغماءة طويلة لن أعود منها مرة أخرى ، كيف صفعته على هذا النحو يا إلهي ، وقفت خلفه بينما كان يدخل نفسه في السروال ، ألقيت برأسي على ظهره وطوّقته بذراعيّ وأخذت أقبّل كتفه المزغّب زغبًا خفيفًا وأهمس له :

– يوسف .. اغفر لي ذلك ، لم أكن أقصده بالقطع ، لكنك كنت قاسيًا فظًا جارحًا لي . لا تعذبني أرجوك ، وحاول تفهّم وضعي وموقفي .

أبعدني عنه وصرخ في انفعال :

– ماذا تظنينني ؟ ، زير نساء ، "دون جوان" ، أتصيّد كل يوم امرأة؟! هل تحلمين أنني سأبقى عاشقًا ولهانًا يرسل لك الخطابات كل أسبوع بعد أن تسافري ، وينتظر أن تحملك الصدفة إليه مرّة أخرى ؛ أنا لن

أذهب إليك أبداً ، لا أركب طائرات ، وسأركب السيّارة لآخر مرّة في حياتي عندما أعود إلى الجبل لأزرع أرضي . ابقي داخل شرنقتك ياسيّدتي وتعفّني فيها كما تشائين حتى تفني وتندثري في ظلام خيوطها الحريرية الناعمة .

أكمل ارتداء ملابسه ، ثم مشى خارج الحجرة مسرعًا وسمعته يصفق باب البيت الخارجيّ بشدّة .

رحت ارتدي ملابسي كالمجنونة ، وأسرّح شعري دون أن أنظر في المرآة . كنت مضطربة للغاية ، أشبه بطير صغير وقع في فخّ لا يعرف كيف يخرج منه ، خرجت إلى ردهة البيت وجلستَ على الأريكة أنتظر ؛ فكّرت في إشعال سيجارة، لكني لم افعل . عاد بعد عشر دقائق ، دخل دون أن ينطق باي شيء سوى :

- السيارة تنتظرك .

اقتربت منه ، قبلت رأسه ، قبلت يديه ، ضممته إلى صدري بشدّة ، لكني كنت أضم تمثالاً جميلاً من الصخر الصلد .

عند وصولي إلى الفندق ، صعدت إلى غرفتي مباشرة ، فتحت الباب، فوجدت صالحًا يُنهي مكالمة هاتفيّة ، وما أن رآني حتى هتف :

- ماما ! قلقت عليك خالص ، مستحيل أنك خرجت وأنت ساخنة ؟ ، هل كنت في السوق ؟

- روحي طلعت من قعودي وحدي في الفندق ، فقلت أخرج أتمشى في البلد ساعة أو ساعتين .

بذلت جهداً كبيرًا لأداري كذبي ، وأنا أقول له هذا ، وأصل دهشته

وعاد يقول لي :

- لكنّ شكلك مرهق يا ماما . ماما ! .. هاهاها .. أنت معلقه حجر بفتلة في صدرك ؟! ، هاهاها .. أنت "هيبز" يا ماما .. هاهاها .. عاملة وكأنك عيلة من عيال "البانكس"؟ ! .. هاهاها .

ارتبكت ، ووجدتني أضحك مثله دون شعور منّي ، وأرفع بيدي ما أهداه لي يوسف ، ذلك الحجر الصغير المدلّى على صدري . كذبت مرة أخرى ، وأخبرته أنّي التقيت رجلاً في المقهى الذي جلست فيه بالسوق، قال لي إنه ساحر وقرأ لي الطالع ، ثم أعطاني هذه التعويذة التي تجلب الحظ والخير ، وتبعد الشرّ عني ، فعلّقتها في رقبتي .

- شُغل نصب واحتيال ؛ الرجل ظنّ أنك سائحة من السيّاح الأجانب. عمومًا ، البلد هنا سياحيّة جدًا ، والناس فيها شُطّار جدًا ، عندهم فنّ في أساليب اجتذاب السيّاح وأخذ فلوسهم بأية طريقة . لكن كم أخذ منك؟

زفرت بحرارة ؛ كنت لا أريد الاستمرار في الحوار ، والاختلاء بنفسي فقلت بضيق .

- لم يأخذ شيئًا يا صالح .

ابتسم ، وبدا غير مصدّق أن الرجل لم يأخذ شيئًا ، لكنه لم يجادل كثيرًا في الموضوع وقال :

- طيب على أية حال اخلعي الحجر العجيب من رقبتك ، وغيّري هدومك، ونامي ساعة ، لأننا سنسهر سهرة كبيرة في الليل .. هل أكلت يا ماما ؟

– طبعًا : أكلت سندوتشات سريعة . قلت .

– طيِّب ؛ أنا نازل البلد في جولة مع الدكتور إبراهيم . حاولي أن تكوني مستعدة للخروج في حدود الساعة السابعة . قال .

– طيِّب .

خرج صالح أخيرًا ، بعد أن حكى لي عن المدينة الأثرية التي زارها ، قال إن الآثار فيها عاديّة ومهدّمة كالملعب الروماني بالإسكندرية ، لكنّ المكان جميل جدًا والجبل رائع ، وأضاف أنه فاتح الدكتور إبراهيم في الزواج من ابنته ، وكان الرجل مرحّبًا جدًا ، وأنهما اتفقا على أن يلتقي الفتاة عدة مرات قبل إعلان الخطوبة رسميًا .

خلعت ملابسي بسرعة ، ألقيت بنفسي تحت رشاش الماء في الحمّام وسرعان ما خرجت فألقيت بنفسي مرة أخرى على السرير لأنام .

لم أدرِ كم من الوقت مرّ منذ نومي بعد خروجي من الحمّام ، فقد سقطت في بئر من النعاس لم أشعر معه بأيّ شيء ، قمت متثاقلة وشمس الغروب توشك على الاختفاء تقريبًا . رحت أسترجع أحداث اليوم، وما جرى لي مع يوسف ، وكلامه عن الشرنقة والجينات ، بدا لي الأمر أشبه بمشهد من مشاهد فيلم سينمائي ، أو حلم غريب . لم أكن مصدّقة لما جرى بيني وبين هذا الشاب ، وكنت مندهشة لسرعة وتواتر الأحداث التي جمعتني به ، لكنّي رغم ذلك كنت أشعر بسكينة روحيّة غريبة تسكنني وتشملني ، وبدت آلام جسدي التي كنت أعاني منها منذ الليلة الفائتة وحتى الصباح وكأنها لم تكن . لم أكن سعيدة ولا حزينة في تلك اللحظات، لكنّي كنت كأنني في حالة انعدام الوزن ، التي يُقال عنها،

أشعر أنني خارج المكان ، خارج الزمان .

ارتديت فستان السهرة المخمليّ الأسود ، ذا الصدر والأكمام المنسوجة من المخرّمات الرقيقة ، لكنني لم أخلع تعويذة يوسف من صدري فبدت مكبة بعض الشيء تحت قماش الفستان . لممت شعري وعقصته إلى الخلف بشريط من الحرير الأسود ، ثم تعطّرت ونزلت إلى صالة الاستقبال بالفندق . فتحت حقيبتي الصغيرة وأخرجت علبة سجائري والولاعة ، طلبت قهوة مغليّة ، أشعلت سيجارة وسحبت منها نفسين ، فلما وجدت أن لا طعم لها في فمي أطفأتها بضيق .

لم أر يوسف هذا المساء ، فقد جاء صالح بعد قليل ، ثم خرجنا من الفندق مع الدكتور إبراهيم وزوجته ، وانضمّ إلينا أناس آخرون ، أعضاء في المؤتمر لا أعرفهم ؛ تناول الجميع العشاء في مطعم شهير يقدّم الوجبات المحلية في إطار فولكلوري موسيقي غنائي راقص .

عدنا إلى الفندق قبل منتصف الليل بقليل ، لم أكن مستريحة ولا متضايقة ، كنت موجودة وغير موجودة بين الناس . أمضيت السهرة أستمع إلى نظريات نيللي عن أنواع الطهي والأطعمة في البلاد التي زارتها ، وأحَبُّ الأكلات إلى نفسها . أبدى الدكتور إبراهيم أكثر من مرة اهتمامه بي ، وعلّق على ارتدائي الأسود بقوله إنه لا يحب اللون الأسود أبداً ، ويكره أن ترتديه النساء ، لكنّها من المرات المعدودة التي يجد فيها امرأة يليق بها ارتداء الأسود . شكرته دون اقتناع برأيه بالطبع ، فأنا أعرف نساء كثيرات يبدون فاتنات في الأسود .

بينما كنّا نهم بدخول الفندق ، اقترح الدكتور إبراهيم أن نذهب

جميعًا إلى البار ونشرب كأسًا من "الشمبانيا" ، كنت أعتذر لرغبتي في النوم ، لكنه أوقفني إذ قال إنّ هناك مفاجأة ، ولابد أن أبقى معهم وأحضرها .

عندما دلفنا إلى البار كانت أضواؤه خافتة ، وكان روّاده قليلين ، اختار الدكتور إبراهيم طاولة لا تبعد كثيرًا عن مكان وقوف الساقي ، حيث جلس البعض على الكراسي العالية التي أمامه يحتسون كؤوسهم . لما هممت بالجلوس على المقعد لمحته واقفًا يصب نبيذًا في كأسٍ لزبون من الزبائن ، إنه يوسف ، يوسف الذي لم أتوقّع رؤيته في هذا الوقت من الليل أبدًا .

غاص قلبي بداخلي ، اضطربت ، سقطت حقيبة يدي الحريرية الصغيرة على الأرض رغمًا عني فانحنى الدكتور إبراهيم ، الذي كان يشرع بالجلوس إلى جواري ، والتقط الحقيبة في اللحظة التي كنت أحاول رفعها ، سلّمها لي ، وتحسس يدي بحركة لا لزوم لها وهو يغمز لي بعينه ويبتسم .

لا ، لا أريد أن أبقى في هذا المكان ، لا أريد أن أكون في مكان واحد مع يوسف ، لن أتمالك نفسي ، لن أكون على سجيتي . ما هذه المفاجآت في آخر الليل يا ربّي ، لا أريد مشاكل من أيّ نوع ، ولا أرغب في أن يلحظ أحد اضطرابي .

قال صالح فجأة وهو ينظر إليّ في قلق :

– ماما .. مالك ، عمّالة تنهجي ؟.

– أبدًا يا حبيبي، أنا متضايقة من الحرّ بعض الشيء . قلت .

– غريبة .. الجو لطيف جداً . لكن عموماً استريحي ، "الشمبانيا" منعشة بالنسبة لك جداً .

أخيراً ، جاء يوسف ، وقف أمام الطاولة ولم ينظر إليّ ، وكأنه لا يراني، ثم قال محيياً الجميع :

– مساء الخير . وابتسم بوقار .

– "شمبانيا" من فضلك . ردّ عليه الدكتور إبراهيم .

أحنى رأسه ثم سجل الطلب في الفاتورة ومضى .

بعد دقائق ، عاد حاملاً زجاجة الشمبانيا في سطل مليء بقطع الثلج، وأربعة أكواب فارغة ، وضع أمام كل واحدٍ منا واحداً منها ، ثم وقف بيني وبين الدكتور إبراهيم ، الذي قال بينما كان يوسف يفتح سدّادة الزجاجة.

– المفاجأة هي أننا سنشرب نخب اليوبيل الفضي لزواجنا أنا ونيللي.

ثم (بق) .. طيّر يوسف فلّينة الزجاجة ، وراح يصبّ السائل الفوّار في كؤوسنا جميعاً ، ثم أعاد الزجاجة إلى مكانها في دلو الثلج الصغير.

صاح صالح بمرح :

– عقبال اليوبيل الذهبي يا دكتور ، أنت ومدام نيللي . في صحّة الزواج السعيد .

رفعت كأسي معهم ، واغتصبت ابتسامة ، بينما رحت أتابع بنظراتي يوسف ، الذي كان قد عاد إلى مكانه خلف البار . لاحظت أنه يتجنّب النظر نحو طاولتنا ، لكنني كنت أميّز على الضوء الشحيح للمكان ، عينيه

الملتمعتين ، والحركة العصبيّة لفكّيه إذ يضغط أحدهما على الآخر . "انظر إليّ يا يوسف أرجوك" !. قلت لنفسي متمنية أن يفعلها ولو مرة واحدة ، "انظر إليّ لأعرف أنك تحبني ولن تنساني ، مثلما أحبك ولن أنساك أبداً . لا تكن قاسياً هكذا!" . لكن يوسف لم تحد نظراته عمّا بين يديه من زجاجات وأكواب ، ولم ينظر إلى ناحيتنا أبداً ، ثم ظل منشغلاً مع زبون جاء وجلس أمامه وبدا كأنه معتاد على التعامل معه إذ راحا يتضاحكان . لكنّه كان متوتّراً قليلاً ، فقد أخذ يعقد حاجبيه بين الحين والحين .

قدم لي الدكتور إبراهيم سيجارة من علبته ، وبحث عن الكبريت فلم يجده ، أخرجت ولاعتي من الحقيبة وأشعلت سيجارته ثم سيجارتي . سحب نَفَساً وقال إنّه لا يحبُّ الولاعات . تركت سيجارتي مشتعلة بين أصابعي لفترة قبل أن أبدأ في سحب دخانها وابتلاعه بعصبية .

يسألنا صالح إن كنّا نرغب في "شمبانيا" أخرى ، لكنّ الجميع ينفون رغبتهم في ذلك .

انتهز صالح فرصة انشغالي مع نيللي والدكتور إبراهيم بالكلام ، وانسحب بلطف ، ثم رأيته يطلب الفاتورة من يوسف ويدفع الحساب . لابدّ أنّه ترك له مبلغاً من الفلوس كإكرامية . يتحادثان قليلاً ، ثم يعود صالح إلى كرسيّه ويقول:

- الولد البارمان ظريف جداً ، أخذ الفلوس مني ناقصة حوالي ربع دولار . هو نفسه الشغّال في المطعم ، لأن الفندق صغير جداً ، وواضح أن العمالة محدودة فيه .

أفتت نيللي بسرعة :

- أصل البلد سياحيّة يا جماعة ، وحركة بسيطة كحركة الجرسون ، تكسب الزبون ، وتجعله يرجع للمكان مرة واثنتين وثلاثا ، والفندق فعلاً صغير .اكتشفت أن موظف الاستقبال هو صاحبه .

وافق الدكتور إبراهيم على رأي زوجته ، وأعلن صالح أن المسألة لا تخلو من جانب شخصي أيضًا ، فكل إنسان وذوقه ، لأنه قابل في البلد أيضًا جرسونات في منتهى قلة الذوق . لم أقل شيئًا ولم أعلّق بالطبع ، ماذا أقول ؟

قال صالح : ما رأيكم .. نروح ننام ؟

لا .. لا أريد الذهاب ومغادرة المكان . أنا مستعدّة للبقاء هنا حتّى الصباح ، حتى سماع شدو البلبل وتغريد الطيور . هذا كل ما تبقّى لي : الجلوس والنظر إلى يوسف . لابد أنه يظلّ هنا حتى موعد إغلاق البار .

قلت لصالح :

- اتركنا ساعة نتكلم مع بعضنا .. الليل طويل .

دهش صالح لموقفي ، وهو الذي رآني وأنا أتثاءب عند دخولنا الفندق، ويدرك تمامًا مدى كراهيتي للسهر ، والجلوس في الأماكن العامة ، ويعلم أنها المرّة الأولى في حياتي ، التي أجلس أثناءها في مكان كهذا .

غمز الدكتور إبراهيم بعينه لي مرّة أخرى وهو يبتسم ، فشعرت بغيظ، أما صالح فلم يعلّق ، ولكني شعرت بارتباكه من موقفي بعض الشيء وهو يقول :

- طيّب حسب رغبتكم يا جماعة .

تحمّس الدكتور إبراهيم لرأيي وقال :

- إن الجلسة ظريفة ولا داعي للاستعجال ، لكن بشرط أن نشرب شيئًا آخر، أقترح "الويسكي" لأن "الشمبانيا" خفيفة كما "البيبسي كولا" ولا تأثير فعال لها.

جاء يوسف "بالويسكي" الذي طلبه الدكتور . صبّ الكؤوس وشربت . رأسي يدور ، وجسدي في حالة استرخاء رحت أتكلّم كثيرًا ، حكيت عن صالح عندما كان طفلاً صغيراً ، وعن القطّة التي كان يحبّها وينيمها إلى جانبه في الفراش ، وكيف أن جارتنا السمينة جدًا جاءت لزيارتنا ذات يوم وجلست فوقها دون أن تشعر وفطّستها . انتعشت ذاكرتي على نحو غريب ، وشعرت بمرح لا أدري سببه ، فرحت أقصّ عليهم بعضًا من المواقف الطريفة التي جرت لي في الحياة . قصصت عليهم حكاية المرّة الأولى التي تعاملت فيها مع المصاعد الكهربائية فدخلت المصعد ولم أضغط على زرّ الصعود ، وظللت أنتظر صعوده حوالي ربع الساعة دون جدوى .

كانوا يضحكون جميعًا ويعلّقون على كلامي ، وبدا الدكتور إبراهيم أكثرهم تجاوبًا معي وهو يصبّ في كاسي كلما فرغ . فجأة سألتني نيللي:

- لكن بصراحة ، لماذا لم تتزوجي مرة أخرى بعد وفاة زوجك ؟

فاجأتني بسؤالها ، لم أكن أتوقعه في مثل هذه اللحظات "لماذا تعيدني هذه المرأة إلى تلك السيرة النكدة الآن ؟!" نظرت إلى وجوههم جميعًا ، استنجدت بصالح علّه يقول شيئًا يسعفني به . نظرت إلى

يوسف الذي لا ينظر نحوي أبداً. انكسر صوتي وأنا أقول :

– هذه مسألة يطول شرحها .. كلّ شيء قسمة ونصيب .

بدت نيللي كما لو كانت محرجة ، إذ اكتشفت ضيقي بسؤالها ، فحاولت أن تعتذر بلطف قائلة :

– قليل من النساء ذكّيات بحيث يكتشفن الأضرار السبعة للزواج .

ضحك زوجها وعلّق بدوره قائلاً :

– ورغم اكتشافك لهذه الأضرار يا حبيبتي ، أنت متمسكة بالزواج جداً، متمسكة به لمدة خمسة وعشرين سنة .

ضحك الجميع مرّة أخرى ، وافتعلت ضحكة مجاراة لهم . كنت أتطلع إلى يوسف ، لكنّه لم يكن ينظر إليّ أبدًا ، وكأنّي غير موجودة في المكان على الإطلاق ، وكأنني لم أكن معه في صباح اليوم المنتهي منذ قليل .

أخذ صالح يتثاءب ويبدي رغبته في أن نغادر المكان لننام ، أثناء ذلك شعرت بفخذ الدكتور إبراهيم تلامس فخذي ! .

یَومِ شَیار

١

عند استيقاظها في الصباح أخبرها ابنها ، أنهم سيغادرون المدينة صبيحة اليوم التالي ، وسيرحلون إلى مدينة أخرى لزيارتها ، وتفقد معالمها ، والمبيت فيها ليلة ، يعودون بعدها لركوب الطائرة من المطار إلى القاهرة .

أشار عليها أن تذهب إلى السوق ، وقال لها إنّها تستطيع التسوّق في المساء ، لأنها ستكون بمفردها ، فالدكتور إبراهيم وزوجته سيتناولان العشاء لدى أصدقاء لهما من المصريين المقيمين في البلد ، أما هو فسيخرج للقاء بعض زملائه في المؤتمر .

قالت لصالح :

– لكن لو رحت إلى السوق بعد الإفطار ، أروح وحدي بدون نيللي ، حتى أتصرّف بحريّتي ، وأشتري حاجاتي بهدوء .

– طيّب على كيفك ، لكن ساومي في الأسعار مع التجار ، لأني عارفك ياماما ، منتهى الخيبة بالنسبة للشراء . قال .

– أسكت يا ولد ، بصّ لحالك لأنك آخر واحد يتكلّم عن الشطارة

والخيبة في الشراء والبيع . راحت تضحك وتقبّله . طلب منها أن يذهبا ليتناولا الإفطار في المطعم ، لكنّها اعتذرت وتعلّلت بشعورها بالإرهاق والكسل بعد سهرة الليلة الماضية ، إضافة إلى حاجتها لمزيد من الوقت ، حتى تقوم بكامل طقوسها الصباحيّة من استحمام وتصفيف لشعرها وإعداد لملابسها قبل الخروج . قبّلها وغادر الغرفة ، سحبت عليها الغطاء ونامت من جديد ، لكنّه كان نومًا قلقًا متقطّعًا ، قامت بعده واستحمّت ، ثمّ ارتدت سروالاً أسود من القطن وقميصًا بنقوش وردية فاتحة ، وسارعت بالنزول إلى المطعم لتناول إفطارها . جاء نادلٌ زميل ليوسف وسألها إن كانت ترغب في شاي أم قهوة . ظنّت أن يوسف موجود لكنه مشغول بأمر من الأمور وسيظهر بعد قليل .

كانت خطتها أن تحادثه عندما تراه بهدوء ، فتشرح له موقفها ثم تعطيه عنوانها وتودّعه بشكل طيّب ، فلا يصحّ أن يفترقا على النحو الذي هما فيه الآن .

أفطرت دون شهيّة ، كانت تشعر بصداعٍ في رأسها ، وببعض الغثيان، اكتفت بقطعة جبن مع الخبز ، وفنجانين من القهوة . كانت تتلكأ أثناء أكلها وشربها ، لتبقى أطول فترة ممكنة في المطعم ، على أمل ظهور يوسف ، لكنه لم يظهر أبدًا ، خلال ذلك .

إذن هو يتعمّد ألا يراها ، يتجنّب لقاءها . غريب أمره والله ، يتصرف كالأطفال ـ هكذا قالت لروحها ـ ومع هذا يريدها أن تظلّ معه في هذا البلد وتتزوجه ! هكذا ببساطة وهدوء . لا إنّه ليس طفلاً ، بل هو شابٌّ مجنون فعلاً ، شخص لا ينظر أمامه ولا يضع اعتبارًا لأيّ شيء في

الحياة ، وكأننا نعيش على الأرض وحدنا ، ولا بشر في الدنيا سوانا ، لأناس نرتبط بهم ونعمل لهم حسابًا ؟! يا له من مجنون ! لو كان يحبّها كما يقول لتصورّ مدى علاقتها وارتباطها بابنها ، وموقفها كأمّ . إنّه لايهتمّ إلا بنفسه ، لا يهتم بوضعها في شركة المعادن ، ولا بعلاقة صالح بالدكتور إبراهيم ونيللي ، هذه العلاقة التي يمكن أن تُدمّر وينتهي معها مشروع زواج صالح بابنتهما إلى الفشل ، هل يتصوّر أنها ستقف عقبة أمام ابنها ومستقبله ، وأنها ستقف وتقول له بهدوء : "أنا آسفة يا صالح لن أعود معك ، لأنني قررت الزواج . أقدّم لك يوسف حبيبي وزوجي المقبل، أنت تعرفه بالطبع ، فهو يقدّم لنا الطعام كل يوم هنا" .

أخرجت علبة سجائرها ، أشعلت سيجارة وبدأت تدخن ، نظرت إلى النادل الواقف في نهاية صالة الطعام ، فكّرت أن تناديه ، أن تسأله عن يوسف ولماذا لم يظهر اليوم ؟ لكن ماذا ستقول له كي لا يلحظ اهتمامها وليبدو سؤالها عاديًا ، من باب الفضول لا غير ؟ ستتحجج بأي شيء ، أشارت إليه فلما جاء سألته بلطف :

– ممكن أسألك : هل أجد في السوق أيّ كتاب عن طهي الأكلات الشعبية عندكم ؟ ، أقصد ، هل تعرف عنوان مكتبة معينة ، تبيع كتبًا من هذا النوع ؟

احتار النادل ، يبدو أن معلوماته لا تختلف عن معلوماتها كثيرًا في هذا الأمر .

فكّر قليلاً ثم أجابها :

– أسأل لك الطباخ وأردّ عليك .

- طيّب . أرجو أن تسأل بسرعة ، لأني خارجة إلى السوق ، وأحب أن أشتري الكتاب ، لأني مسافرة بكرة إن شاء الله .

- طيّب .. لحظة واحدة . قال وذهب .

غاب دون أن تسأله عن يوسف . ربما دخل إلى المطبخ وسأل الطباخ، لكن ما علاقة ذلك بيوسف ؟! لماذا اللفّ والدوران ؟ لماذا لا تقول له مباشرة أين زميلك يوسف ؟ ، ولماذا لم يظهر معك خلال هذا الصباح ؟ عندما يعود ستفعل هذا بوضوح .

عاد الشاب مرّة أخرى . لاحظت هذه المرّة وهي تنظر إليه حَوَلاً خفيفًا في عينيه عندما كان ينظر إليها وهو يكلّمها ويقول لها إن هناك كتبًا كثيرة عن الطهي الشعبي ، سوف تجدها في أية مكتبة تقابلها بوسط المدينة .

لم تسأله عن يوسف هذه المرّة أيضًا ، جبُنت في آخر لحظة ، خرجت من المطعم وهي تجرجر قدميها شاعرة بخيبة أمل لا حدّ لها .

قرّرت الذهاب إلى وسط المدينة سيرًا على الأقدام ، فهي تريد أن تمشي وأن تظلّ وحيدة تسير وتسير دون هدف لأطول فترة ممكنة لكنّها عند خروجها من المطعم ، قابلت نيللي ، فاقترحت عليها المرأة ذات الشعر الأحمر أن تذهبا إلى السوق . كانت في حالة لا ترغب معها أن ترى أحدًا ولا أن تحادث أي كائن كان ، تريد أن تكون مع نفسها فقط ، وأن لا تحادث إلا روحها ، لذلك تذرعت بضرورة ذهابها للحلاّق في الفندق ليغسل شعرها ويصفّفه ، وقد أصرت على ذلك رغم ارتياب نيللي في كلامها ، لأنها حسب علمها ، وكما قالت لها مرة لا تحبّذ الذهاب إلى

الحلاّق . حاولت نيللي دفعها لتأجيل ذلك إلى مابعد الغداء حتى لا تتعطلا لكن هاجر أصرّت ، وذهبت إلى السوق بمفردها .

سارت حتى منطقة الحي التجاري ، تدور على المحلات ، تقف أمام الواجهات الزجاجية ، تنظر إلى المعروضات ، لكنها لا ترى شيئًا ، لا تركّز في أي شيء تراه ، إنها طوال الوقت لا ترى غير يوسف ، تكلّمه ، تدعوه إلى حوار هادئ متعقّل ، تعانقه ، ترجوه أن يصفح عنها ، وأن يتفهّم حساسية وضعها كأمّ ، وكإنسانة لها محيط من الناس لا يمكن أن تتركهم وتهجرهم فجأة وببساطة كما يطلب منها ، لفّت ودارت ومشت بين الناس ، لكنها كانت وحيدة ، بائسة ، منهارة . تعبت قدماها وأحسّت أنهما تورمتا بعض الشيء فقررت شراء بعض الهدايا الصغيرة لزميلاتها في شركة المعادن والعودة إلى الفندق . رأت كتاب فن الطهي الشعبي أكثر من مرة ، لكنها لم تشتره بالطبع .

ماذا تفعل لو جاء ميعاد السفر ولم تر يوسف ؟ ، ستموت ، ستجنّ ، ستترك له خطابًا مطولاً مع زميله الذي أعطاها عنوانه : ستشرح في الخطاب موقفها ووجهة نظرها ، ستقول له صادقة :"أنت حبي الأول والأخير يا يوسف ، لا..أنت حبيبي الوحيد . تعال نتفاهم ونجد صيغة معقولة لعلاقة طويلة ممتدة . الزواج مستحيل . أنا لا أريد أن أكون أضحوكة بين الناس ، ولا أن أخسر ابني وأجعله مسخرة لكل من هبّ ودبّ حين يعرف الناس أن أمّه تزوجت نادلاً شابًا في عمره . لا أريد قلّة قيمة في آخر زماني يا يوسف ، فعلى مدى حياتي وحتّى الآن عشت سيدة محترمة ، محتشمة ، وقورة ، يشهد لها الجميع بالاستقامة

والشرف . أتفهم يا يوسف ؟ ، أتفهم يا مجنون ؟ حاول أن تستوعب ذلك ، ولا تكن كالطفل المتشبث بلعبة ! .. آه يا ربي ماذا أفعل ؟ .

ظلّت تحملها أفكار وتحطّها أفكار ، دون أن تحدد على وجه الدّقة ماالذي ستفعله ، فكّرت أن العنوان معها في الحقيبة ، ربما تستطيع الذهاب إلى يوسف بسرعة في البيت للاعتذار له عن صفعة الأمس ، ثم الجلوس معه لتحادثه قليلاً ، لكن أليس من المحتمل ألا يكون موجوداً في بيته خلال هذا الوقت ؟ ولو .. ستترك له ورقة تحت عقب الباب تخبره فيها بمجيئها وتبلغه اعتذارها ، ليقرأها بعد عودته في هذه الحال .

مرّت لحظات ، اكتشفت خلالها سخافة أفكارها العمليّة ، وحقيقة جبنها ، فهي لن تذهب ولن تترك ورقة ، ولن تكتب خطابًا ترسله له مع زميله النادل ، إنّها جبانة فعلاً ، إنسانة لا تقوى على المواجهة ، وتحسب ألف حساب قبل الإقدام على أي تصرّف ، بالتالي هي لا تحسن التصرف، ولا تجيد تدبير أمورها .

طيّب ، عندما تعود إلى الفندق ستكلّمه ، فلابدّ أن يظهر عند الظهر ، ربّما تأخّر في الصباح لأن عمله لا يبدأ باكرًا كالمعتاد بسبب سهره في البار ليلة أمس . سوف تقول له : أريد رؤيتك يا يوسف والحديث معك لدقائق معدودات . لكن هذا مستحيل في الفندق ، لا تريد جذب الأنظار ، أو إثارة انتباه الآخرين ، وَجَدَتْ أن الأفضل أن تتفق معه على موعد خارج الفندق .

نبتت في رأسها فجأة فكرة شيطانية بينما كانت تسأل نفسها : هل يوسف جادّ معها بالفعل ؟ ، كانت الفكرة أن يوسف شخص خطير ،

يختار ضحاياه من النساء أمثالها ، ويعرض عليهنّ الزواج بعد التغرير بهنّ ، وبالطبع هنّ يرفضن طلبه المستحيل المفاجيء . فكرة معقولة ، خصوصاً أنّه يعمل في مكان تمرّ عليه فيه أشكال وألوان من النساء ، نساء يسمحن بعلاقات عابرة سريعة لايترتب عليها التزامات من أيّ نوع. لا .. هذه فكرة شيطانية بالفعل ، فكرة تشبه أفلام السينما المصريّة القديمة ، افتراء على يوسف ، وتفكير أسود لا أساس له ، يوسف يبدو كالملائكة ، إنه إنسان مختلف ، وشابٌ من نوع خاص .

أخيراً قررت العودة ، كانت ضائعة ، مهزومة ، لا تدري ماذا تفعل ، قررت الصعود إلى غرفتها وترك ما اشترته أولاً ، ثم الاغتسال والعودة إلى المطعم لتناول الغداء مع صالح الذي اتّفق معها على ذلك قبل افتراقهما عند الصباح .

٢

صَعَدْتُ السلم إلى الطابق الثاني حيث غرفتي وصالح . الممر الواقعة على جنباته غرف النزلاء طويل ممتد ، وإضاءته ضعيفة ؛ عندما بدأت في اجتيازه كنت أشعر بسخونة جسدي وتعرّقه من كثرة المشي ، وبرائحة الأتربة في أنفي ، لذلك قررت أن آخذ حمامًا سريعًا وأغسل شعري حتى أنتعش ، فبدأت وأنا أسير مسرعة في تحريره من العقدة المطاطية التي ألمّه بها من الخلف . كنت أفكّر مهمومة ؛ قبل وصولي إلى باب غرفتي بخطوات ، سمعت صوت إغلاق باب إحدى الغرف ، ورأيت يوسف واقفًا أمامي .

– يوسف . همست مبهوتة .

نظر إليَّ نظرته الطويلة المعهودة . "يا إلهي كم أنا ضعيفة أمامها ! ، وكم أنت رحيم كريم معي إذ جمعتني بيوسف أخيرًا " .

– يوسف . هتفت مرّة أخرى وأضفت :

– لماذا تعاملني هكذا يا يوسف ؟! يجب أن نلتقي ونتفاهم ونتّفق على الأقل على التراسل . يجب علينا الحوار عبر الخطابات ، سأرسل لك

خطابًا عندما أعود ، حاول الردّ عليه . فلنتحاور يا يوسف ، الأمور ليست بالبساطة التي تتصورها .

ثم فجأة تذكّرت :

– ماذا كنت تفعل في هذه الحجرة .. هه ؟ سألته .

– أغازل امرأة جميلة .. ما رأيك ؟ قال .

– لا تكن سخيفًا يا يوسف .. لا أقصد هذا ، لكنّي سألتك لتصوري أنك لست موجودًا في الفندق . طيّب ردّ على كلامي بسرعة أرجوك .

– كلامي انتهى يا هاجر ، لا كلام جديد عندي ، فكّري ، كوني نفسك مرّة واحدة ، انتمي لروحك وثقي بها .

مسح على خدّي بيده ، وقبلني بسرعة ومضى .

لا أعرف كيف أولجت المفتاح في الباب ، كيف دلفت إلى الحجرة لأرتمي على السرير ، شبه منهارة . "يا ربي كان مالي ويوسف ! حياتي كانت تمضي عاديّة طبيعيّة ، وكنت قد وضعت ياربي سدًا منيعًا بيني وبين الرجال ، فلا أراهم ولا أحسهم ، ولا أتعذب بسببهم ، ولكن من أين طلع لي يوسف ؟! وكيف أسقط ذلك الجدار العالي المتين ، الذي فصلني عن الجنس الآخر سنوات وسنوات ؟!" .

قررت عدم النزول إلى المطعم . لا أريد أن أرى يوسف بمفردي سأتوتر أكثر ، الأفضل أن أراه بوجود أناس معي ، سأنتظر صالحًا ، فهو بالطبع سيسأل عنّي عندما يأتي ولا يجدني وسيتصل بي في الغرفة، فأنزل إليه في المطعم ونتغدّى معًا . لم أغتسل ولم أغسل شعري ، بقيت قابعة على السرير أدخّن وأفكّر ، أدخّن وأفكّر : "مبسوطة يا هاجر ، لأن

شاباً مثل فلقة القمر وقع في غرامك ! .

سعيدة لأنك قمت بمغامرة عاطفية عابرة ، كالمغامرات التي يقوم بها زملاؤك الرجال في شركة المعادن وتسمعينهم يتهامسون عنها أثناء العمل .. هه! طيب تصوري أنك تزوجت به ، وليس هناك احتمال لمشاكل مع نيللي ، أو مع صالح أو مع أي إنسان آخر تعملين له حساباً ، تصوري نفسك زوجة ليوسف بعد عشرين سنة . ستكونين عجوزاً فوق الستين ، مجعّدة الوجه ، واهنة الجسد بينما هو رجل في عزّ رجولته ، مهزلة ، بل مسخرة حقيقية لكل من يتفرّج ولا يشتري".

"لكنني أحبه ، أتمناه ، أرغب أن أكون معه إلى الأبد .. ما هذه الورطة يا ربي ؟ .. سيّدنا محمّد تزوّج من السيّدة خديجة ، وكانت تكبره بخمس وعشرين سنة ، ولم يتحدث أحد عن أيّ مشكلة في ذلك . ولكن هل أنت السيدة خديجة يا هاجر ؟! ، حاشا لله ".

بكيت ، بكيت بحرقة لشدة غيظي وحيرتي ، قلت سأشغل نفسي بأيّ شيء ريثما يعود صالح ، سأرتّب حقيبتي وحقيبته استعداداً للرحيل وكذلك الحقيبة الصغيرة التي سنأخذها معنا عند سفرنا إلى المدينة الأخرى صباح الغد ؛ أخذت أضع الملابس المتّسخة والملابس التي لن نستخدمها بعد الآن في الحقيبتين أولاً ، ثم الأحذية ، فكُتُب صالح التي اشتراها من هذه المدينة ، والهدايا التي ابتعتها ؛ وبينما كنت أضع ثوبي المشمشي الذي ذهبت به إلى يوسف تذكّرت ما جرى بيننا ؛ لقد كان الشيء الوحيد الحقيقيّ الذي أبهجني في حياتي هو تعانقنا والتحام جسدينا ، وتلك اللحظات التي أمضيناها نتحادث، وشعوري العارم

تجاهه عندما كان يعدّ القهوة في المطبخ ، ثم كلامه الغريب . "يا إلهي ، كيف سأتحمّل كل ذلك ، وأنا أجترّه وحيدة لحظة بلحظة عند عودتي إلى مصر؟!".

أمسكت بالثوب ، قبّلته ، تنسّمت رائحة يوسف فيه ، قررت ألا أغسله أبدًا ، وألا أرتديه بعد ذلك مطلقًا وأن أحتفظ به للذكرى ، ذكرى يوسف المستحيلة . رنّ جرس الهاتف . "إنّه صالح ، سأنزل إليه حالاً ".

رفعت السماعة بسرعة وقلت :

– صالح .. يا الله .. أنا نازلة بسرعة لنتغدّى .

– هاجر .. هل عنواني مازال معك ؟

همست وأنا أرتجف من المفاجأة ، إذ تبيّنت أنه صوت يوسف .

– طبعًا يا يوسف .. طبعًا !

– هاجر سأنتظرك .. مع السلامة .

– يوسف .. ألو .. يوسف ..

كان قد أنهى المكالمة بينما كنت أناديه ، وضعت السماعة وأنا أتساءل: ما هذا ؟! إنّه الجنون نفسه ، لم أصادف إنسانًا غريب الأطوار في حياتي مثل يوسف ، بدأت أبتسم ثم أخذت أضحك على نحو هستيري . المسألة تبدو لي وكأنها مشهد في مسرحيّة قديمة . مشكلتي هي سهولة مباغتتي ، لذلك فأنا أظنّ أنني حمقاء ، فالحمقى وحدهم هم الذين يفاجأون ، فيتصرفون بردّ الفعل. كنت مبهورة بالأمس من يوسف، لكني اليوم لست مبهورة ، أنا فقط مدهوشة.

أخذت أضحك وأضحك ، حتى فُتح الباب ودخل صالح وهو يقول مستغربًا:

– ماما .. مالك ؟! سمعتك تضحكين لوحدك ، خير إن شاء الله ،

لفّقت كذبة سريعة وقلت :

– تصوّر .. كنت خارجة لأتغدّى ، واكتشفت أني لابسة خفّ الحمام . هاهاها .

ابتسم صالح وقال :

– ولا يهمك ، بسيطة ، جلّ من لا يسهو ، لكن ، والله العظيم يا ماما، حضورك الرحلة معي كان مهمًا جدًا . أنا شاعر أن نفسيتك ممتازة وأنك صغرت خمس سنين على الأقل . عندي شعور أن الضحك طالع من قلبك . شيء جميل والله العظيم .

تأملته بهدوء وأجبته :

– شكرًا يا حبيبي .. ربنا يخلّيك لي ، ويحميك لشبابك . أمنيتي أن يصبح لك بيت وأولاد .

– إن شاء الله يا ماما .. لكن بشرط أن تكوني معي في بيت واحد .

قلت محتجّة :

– صالح .. أظنّ أننا تكلمنا في موضوع البيت عدة مرات ، سأبقى في بيتي يا صالح . أنا كبرت وأريد أن تظلّ حياتي كما هي ، لا أحبّ أن يشاركني فيها أي إنسان ، ولا أن أكون عبئًا عليك ، أو على زوجتك .

تردد قليلاً ثم قال :

- ماما .. اسمحي لي بمفاتحتك في موضوع ، لكن أرجو أن تردّي بهدوء ، أن تجاوبي بنعم أو لا ، بدون عصبيّة أرجوك .

- طيّب .. تكلّم !

- الدكتور إبراهيم كلّمني بشأن عريس لك ، زميل له ، وأنا أسمع عنه لكنّي لا أعرفه .

بُهِتُ .. نظرت إليه بغيظ وقلت :

- اسكت يا صالح ، بلا عريس ، بلا كلام فارغ .

- طيّب سكتّ ، لكن أتمنى لو نناقش المسألة بالعقل لأفهم الموضوع مرة ، وأن يكون عندك أي مبرر مقبول للرفض ، اعطي لنفسك فرصة ، ربما يصبح لك وجهة نظر مختلفة .

استرجعت كلامه وقلت بغضب :

- هي المسألة ظلّ رجل ولا ظلّ حيط ؟ أنت عارف أن موضوع الارتباط مسألة تخصّني وأنا رافضة الدخول فيه .. الله !

- بالتأكيد يا ماما الموضوع يخصك . لكن اعطي لنفسك فرصة . أنا موافق على أي إنسان يلائمك ، أي إنسان يتمّ اختيارك له ، فالمهمّ أن تكوني سعيدة وأن تعيشي حياتك يا ماما . حرام ، عمرك ضاع ومن حقك أن تعيشي وتفرحي وتسعدي بقية حياتك .

قلت لنفسي وأنا أتأمله دون أن أردّ عليه : "أيّ واحد ؟ ، أي واحد يا صالح ؟ إذن ما رأيك في يوسف ، ما رأيك لو تزوّجت يوسف ؟ ، أنا لا أريد أن أكون مع أي إنسان آخر في العالم غير يوسف ، هل توافق يا صالح ؟ ، هل توافق على زواجي من نادل يصغرني بما يزيد عن خمسة

عشر عامًا ؟ لا أظنك توافق على ذلك يا صالح".

لمّا وجدني لا أردّ عليه ، حاول شرح موقفه أكثر فقال :

- ماما .. فكّري في الموضوع ، أنا أحبُّ أن تكون حياتك سعيدة ، والزواج بالنسبة لك رفقة أولاً وقبل كل شيء ، أنت بحاجة إلى رفيق ، إنسان ناضج يفهمك ويقدّر ظروفك ، يشاركك حياتك وأوقاتك ، ويخرجك من وحدتك .

"لا أحد يفهمني يا صالح غير يوسف ، لم أقابل رجلاً ناضجًا غيره ، يوسف هو حلمي ، هو كل ما أتمنّاه من الحياة . آه لو تفهم يا صالح ويفهم الناس كلهم . لماذا لا يفهم الناس ذلك" ؟ تساءلت بيني وبين نفسي، ووجدت الإجابة .. إنها شرنقة يوسف .

قلت لصالح لأنهي الحديث في هذا الموضوع :

- هيا نتغدّى ، أنا جعت جدًا .

- طيب يا ماما ، لكن الله يخلّيكِ فكّري .

- أنا أفكّر يا صالح ، لا أكفّ عن التفكير .

نزلنا إلى المطعم لتناول الغداء ، وبينما نحن نجتاز الممشى الموصل بين الحديقة وباب المطعم ، اقترح صالح أن نأخذ بعض اللقطات التذكارية في هذا المكان الجميل ، كان قد أحضر معه من الغرفة الصّوارة بعد أن قرّر أن نتصور في المطعم والحديقة ، وبهو الفندق أيضًا .

التقط صالح صورًا لي ، وصورًا لمدخل المطعم ، ومشهدًا عامًا للحديقة، وبينما كان يلتقط أحد المناظر ظهر يوسف ، كان مسرعًا في

خطاه يهمّ بدخول المطعم عندما طلب صالح منه أن يلتقط لنا معًا بعض اللقطات .

أشار صالح إلى شجرتي الكينا وقال :

- تعالي هنا يا ماما ، تحت الشجر ، اللقطة تطلع جميلة .

تحركت ووقفت إلى جوار صالح تحت شجرة الكينا ، يده على كتفي ، وذراعي يحوط خاصرته . التقط يوسف الصورة بسرعة . وأعطى الصوّارة لصالح وهمّ بالذهاب .

ناديته دون أن أشعر :

- يوسف .. تعال لأصوّرك مع صالح .

تقدّم ووقف إلى جوار صالح ، الذي شعرت بضيقه وتأففه قليلاً ، بينما لم ينطق يوسف بكلمة ، وبقي إلى جوار ابني أثناء التصوير واجمًا، عندما ذهب تساءل يوسف باستغراب :

- أنت عرفت اسمه ؟!

لم أردّ وتشاغلت بإعادة آلة التصوير إلى جرابها الجلدي ، ثم علّقتها في كتفي .

بقيت أنا وصالح في الفندق حتّى ذهابه إلى موعده مع زملائه ، وعندما عاد كنت قد انتهيت من ترتيب الحقائب تقريبًا ، فأنا لا أحب تأجيل أمور من هذا النوع حتى اللحظة الأخيرة . لم أر يوسف خلال تلك الفترة أبدًا ، ولم أره كذلك أثناء العشاء في المطعم . بعد العشاء اقترح صالح أن نتمشّى قليلاً حول الفندق ، كان الطقس ربيعيًا رائعًا والهواء نقيًا منعشًا ، فوافقته على الخروج والتمشية ، وبينما نحن سائران أثار

صالح موضوع زواجي مرّة أخرى ، محاولاً استكمال الكلام الذي بدأه عند الظهر .

قلت له مازحة :

– طيِّب افترض أنني ارتبطت برجل لا يعجبك ، أو برجل لا ترضى عنه ماذا ستفعل ؟

– مستحيل أن ترتبطي بإنسان لا يعجبني يا ماما .

– افترض يا سيدي أنه إنسان غير ملائم من وجهة نظرك .

– ماما عندك طريقة عجيبة في التهرب ، وقدرة غريبة على تحويل أي موضوع في منتهى الجدّية إلى تهريج ! : ما قصدك بإنسان غير ملائم ؟ تساءل ثم أردف قائلاً بضيق :

– عنده عاهة مثلاً ؟ متخلّف عقليًا ؟ عمومًا لمّا يكون هناك شخص حقيقي من لحم ودم ، وقتها يحلّها ربّنا .

وَجَدَ أن لا جدوى من الاستمرار في هذا الموضوع ، فراح يحكي لي أنّ الدكتور إبراهيم بنى شقّة لابنته في "الفيللا" التي يمتلكها بمدينة نصر، وأنّ مسألة ترتيبات الزواج ومصاريفه لن تكون فيها مشاكل ، وأنّ من المحتمل لو جرى التفاهم بينه وبين البنت أن يتزوجا خلال الصيف القادم .

عدنا إلى الفندق ، وكنت أشعر برغبة غريبة في النوم ، وفي السفر بسرعة إلى مصر ، لكنني كنت متشوّقة أيضًا إلى رؤية المدينة الأخرى ، التي سنزورها غدًا قبل مغادرتنا البلاد في اليوم التالي .

یومِ اوّل

١

ضَحِكَتْ نيللي فجأة وهي تترك ذراع زوجها الذي كانت تتأبطه ، لتقترب من هاجر وتهمس لها :

– هنا شارع البنات إياهن ، تعالي نروح لنتفرج ونشوف ، أحبّ أن أعرف هل وضعهن مختلف عن مناظرهن في الأفلام عندنا ؟ تعالي نروح مع صالح وإبراهيم .

دُهِشَتْ هاجر ، فهذا آخر شيء تصوّرت سماعه من نيللي .. تساءلت: "لماذا تريد الذهاب لرؤية بنات الدعارة ؟! ما الذي يجذبها لرؤية أمثال هؤلاء النسوة ؟!" "نيللي شخصية غريبة بالفعل والأغرب منها زوجها وصالح اللذان يرغبان في الفرجة أيضًا" إنها لا تجد طرافة في رؤيتهن ، وقد استغربت لأن أمورًا من هذا النوع مازالت موجودة ومصرّح بها في هذه البلاد . "مسألة منحطّة ، لا إنسانية . مقززة !" . أعلنت رفضها لمصاحبة نيللي ، وأنّ من المستحيل أن تحاول رؤية أشياء من هذا النوع.

لكنّ نيللي راحت تلحّ عليها قائلة :

– تعاملي مع المسألة ببساطة ، إبراهيم قال لي إن كل واحدة تقعد

على باب بيتها تنتظر الزبون . نمرّ ونتفرج ، وكأننا نتمشّى ؛ نوع من الفضول ليس أكثر.

ردّت هاجر بحسم :

– مستحيل .. مستحيل . ما الظريف في الفرجة على نسوان في الضياع؟! تمشّي أنت مع صالح والدكتور إبراهيم ، وأنا في انتظاركم حتى ترجعوا .

– طيّب .. صالح يروح مع إبراهيم ، ونتمشّى أنا وأنت هنا حتّى رجوعهما .

افترقت المرأتان عن الرجلين اللذين ذهبا معًا . سارت نيللي معها تتأمل الناس وطريقتهم في الكلام وتضحك أو تسخر أحيانًا قائلة إن المدينة متخلفة جدًا ، وإنّ من المستحيل أن تقتنع بعد رؤيتها للمدينة الأولى أنّ المدينتين تقعان في بلد واحد ، فهناك فرق كبير بين وضع الناس هنا ، وحياة الناس في المدينة الأولى ، ومستوى الخدمات مختلف، وكذلك سلوك الناس أيضًا .

"لو أنّ هذه الرحلة كانت بدون نيللي ، لاختلفت كثيرًا ، كان من الممكن أن تكون أكثر بهجة وراحة للأعصاب" هكذا قالت لنفسها وهي ترد على كلام المرأة السائرة إلى جانبها وتجادلها قائلة :

– الشيء نفسه موجود عندنا في مصر ، الصعيد متخلّف جدًا عن القاهرة، والناس هناك سلوكهم متخلّف ، ومستوى الخدمات ضعيف جدًا.

اعترضت نيللي قائلة :

- لا .. لا .. في بلاد عربية كما في الخليج الوضع مختلف تماماً . وضع الناس ممتاز جداً . لما سافرت مع إبراهيم وعشنا هناك ، شعرت وكأني في أوروبا ، بل وأفضل من أوروبا ؛ كلّ السلع متوفرة ، سلع من جميع أنحاء الدنيا، من الشرق ومن الغرب . ثم إنّ مستوى معيشة الناس مرتفع جداً ، ولا يوجد فقراء أبداً . طبعاً لهم عاداتهم وتقاليدهم المختلفة، هم أحرار ، ما لنا ومالهم من ناحية تصرفاتهم . لا يا هاجر .. البلد هنا فظيعة .

حارت هاجر ، ماذا تقول لها ؟ فهي لم تسافر أبداً إلى بلد من بلاد الخليج، لم تتعامل مع أناس من تلك المنطقة عن قرب . فلا يمكنها أن تُشكل موقفًا منهم بالسلب أو الإيجاب ، لكنها تدهش من سلوكهم في المحلات العامة في بلدها ، من طريقة ارتداء نسائهم للملابس ، من كميات الذهب في سواعدهن وعلى صدورهن . تعجبت لرأي نيللي فيهم ، وهي التي تبدو دومًا وكأنها واحدة من الأريستقراطية المصرية القديمة . شعرت أن أفكارًا كثيرة تختلط برأسها عن التقدم والتحضر ، لم تكن ترغب بمجادلة نيللي في مسألة لم تفكّر فيها من قبل فسألتها :

- لكن هل الفلوس قادرة على حل كلّ المعضلات ؟ ، لو كان عندنا في مصر فلوس بحجم فلوس السعودية أو الخليج هل كنا استطعنا حلّ مشاكلنا ؟ أنا لا أظن ذلك .

ردّت نيللي بسرعة وهي تستوقفها أمام محل لبيع السجاد والبسط اليدوية فقالت :

- طبعًا .. طبعًا لأن تسعًا وتسعين في المائة من مشاكلنا في مصر

سببها نقص الفلوس ، ولو كان عندنا فلوس لكنّا على الأقل سددّنا الديون المكوّمة على قلوبنا .

تذكرت هاجر زميلها القديم في شركة المعادن وكلامه عن ثروات مصر وخيراتها وسوء توزيعها وعن اللصوصية والنهب الدائم ، وعصابات المرتشين والمنتفعين وتجّار المخدرات والسلاح والعملة . تذكّرته بالخير ، فهو رغم كل شيء ورغم عنفه مع أخته ، وكراهيتها هي لسلوكه مع هذه الأخت ، إلا أنها لم تنس أنّه علّمها أشياء كثيرة ، وفتح عينيها على حقائق طالما غابت عنها ولم تفكّر فيها قبل تعرّفها عليه أبداً .

عاد صالح وإبراهيم بعد قليل . راحت نيللي تسألهما بلهفة عن نساء شارع الرذيلة شعر صالح بقليل من الخجل والحرج . إذ وجد أمّه تنظر إليه باستنكار ، فتشاغل بخلع ربطة عنقه بحجة شعوره بتزايد حرارة الجو ، بينما ردّ الدكتور إبراهيم:

– الشارع والبنات ذكّروني بشارع الرويعي في مصر أيام الاحتلال الإنجليزي. كانت الدعارة منتشرة جداً ، وبعد الثورة صدر قانون بمنعها لكن ذلك لا يعني أنّها اختفت لأنّها موجودة بشكل سرّي وعلى مستوى كبير ، خصوصاً مع السيّاح من بلاد النفط ، لكن الغريب أن تكون موجودة في بلد مفتوح مثل هذا البلد ، الناس فيه سلوكهم متحرر إلى حدّ كبير مسألة غريبة فعلاً ! .

قال صالح فجأة ، مغيّراً موضوع الحديث :

– تعالوا ندخل إلى مطعم لنتغدّى فيه ونستريح من المشي .

وافق الجميع على الفكرة ، غير أن نيللي لم تتحمس كثيراً ، إذ قالت:

– المطاعم هنا منظرها لا يسرّ ويبدو أن الأكل فيها سيّء . يظهر أن المدينة هنا غير سياحية على الإطلاق .. لكن تعالوا نجرّب .

٢

لم أكن معهم على الغداء إلا بجسدي تقريبًا فروحي كانت مع يوسف، وعقلي أخذته أفكار شتّى . هذه المدينة تحيي فيّ ذكريات قديمة ، الناس فيها يشبهون الناس في بلادي ، وإن اختلفت سحناتهم وملامحهم وطريقتهم في الملبس والكلام بعض الشيء .

لا أدري لماذا صعدت من أعماق ذاكرتي مشاهد طفولتي الأولى ، بينما كنت أجول في شوارع هذه المدينة ؟ لماذا تذكّرت حسن الأطروش جنايني حديقة جدّتي ، الذي ولدت امرأته ثلاثة توائم . فجاءت إلينا مع زوجها تحملهم في قفص من القش على رأسها ، ثلاثة من الصغار الرضّع ، يصرخون ، ولا شيء يغطّيهم ويحميهم من برد "طوبة" القارس إلا طرحتها السوداء . أعطتهم جدتي وقتها بعضًا من ملابسي القديمة فبكيت احتجاجًا ، ورحت أدبّ على الأرض نادبة ضياع ملابسي وممتلكاتي وتبديدها . لم يغب عني أبدًا وجه المرأة وهي تبتسم في أسى وخجل وهي تطيّب خاطري ، ووجه جدّتي وهي تنعتني بقلة الذوق وانعدام الإنسانية وبالأنانية . مازلت حتّى الآن أخجل من نفسي كلّما تذكرت هذه

الواقعة ، وأشعر بمرارة كلما تذكّرت أن ملابسي تلك التي كانت قد ضاقت على جسدي منذ زمن لم تحمِ الصغار من البرد ، ولم تمنع عنهم غائلة الموت ، فقد ماتوا جميعًا بعد أسابيع قليلة ؛ وكانت جدّتي تترحم عليهم وتقول : الحمد لله ، ربّنا رحمهم من الشقاء ، ورحم أمّهم من عذاب تربيتهم وحلّ مشكلة أكلهم وشربهم ، لطف وقدّر وهو العالم بأحوال العباد .

ربما انتعشت ذكرياتي لكثرة ما رأيت من شحّاذين في هذه المدينة ، مرضى، مجذومين ، مجانين، معتوهين . مدينة تنضح الفقر والفاقة ، رغم القصور والمباني الجميلة التي تقع عليها العين بين الحين والحين في المدينة الأخرى . تذكّرت شحاذي مصر لقد كثر عددهم في السنوات الأخيرة . لكنّ الفرق بينهم وبين الشحاذين هنا هو أنهم يشحذون بأساليب طريفة يخترعونها بين الحين والحين.

رحت آكل بلا شهيّة ، وأستمع إلى نيللي وهي تتأفف من رداءة الطعام، وتعلّق على كلّ شيء . كنت أحاول تجاهلها ، لكنها كانت تصرّ على توجيه الكلام لي ، وإدارة الحوار معي .

فاجأني صالح ونحن نشرب الشاي المعطر بالنعناع ، الذي طلبناه بعد ما أكلناه من سمك إذ قال :

– ماما .. أنا كلمتك عن سامية بنت الدكتور إبراهيم طبعًا ، وأحبّ أن أفتح الموضوع مع الدكتور إبراهيم ومدام نيللي في حضورك .

– طبعًا طبعًا يا حبيبي . قلت .

ابتسم الدكتور إبراهيم وراح يشعل سيجارة ، وردت نيللي بسرعة :

– من ناحيتنا كلّ شيء جاهز . سامية أغلى ما في حياتنا أنا والدكتور إبراهيم ، وطلباتنا معقولة جداً .

التقط زوجها طرف الخيط منها وأعلن :

– شبكة وهديّة في حدود عشرة آلاف جنيه ، ومهر في حدود المبلغ نفسه ، والفرح في فندق خمسة نجوم ، والباقي علينا .

لاحظت تعرّق جبهة صالح ، واحمرار وجنتيه . ازدردت ريقي وقلت :

– يعني .. في حدود ثلاثين ألف جنيه مثلاً يا دكتور .

– لا أظن أنها ستقلّ عن ذلك . قال .

ابتسمت نيللي ابتسامة باهتة ، ثم قاطعت زوجها قائلة :

– على فكرة .. سامية أمنيتها فستان زفاف أبيض من باريس .

قفز إلى ذهني مشهدنا أنا ويوسف عاريين أمام المرآة عندما كنت في بيته ، وكلامه عن صورة زفافنا والتعرّي : كدت أضحك ، لكني كنت أفكر مهمومة أيضاً، من أين سنأتي بهذا المبلغ الكبير ، الذي طلبته نيللي وزوجها لأجل زواج صالح! "الناس افترت فعلاً "! قلت لروحي . "ماذا يظنّان بنا ؟! أيظنّان أنّ لدينا كنوز الملك سليمان ؟!" . راتبي محدود وكذلك راتب صالح ، والمبلغ الضئيل الذي يصلنا من الإرث ، يكفي بالكاد لتغطية نفقات معيشتنا . "ثم ما ضرورة إقامة حفل العرس في فندق خمسة نجوم؟، وأن نأتي بفستان الزفاف من باريس . كلام فارغ ونفخة لا لزوم لها" . قلت لروحي مرّة أخرى وأنا مغتاظة ، لكني اغتصبت ابتسامة وأبديت موافقتي على الشروط، حتى لا أتسبب في حرج لصالح، أو أبدو كمن يحاول عرقلة إتمام الزواج .

كنّا قبل الغداء قد تجوّلنا كثيرًا في أنحاء المدينة ، وتفقّدنا معالمها القليلة ، معظمها جوامع أثرية قديمة ، يعود بعضها إلى زمن الفتح العربي للبلاد ، وبيوت على الطراز المعماري الإسلامي القديم ، دونما أناقة أو بذخ . لاشيء يستوقف الإنسان بها سوى جمال النساء ، وعيونهن الواسعة المعبّرة . قيل لنا إن معظم هؤلاء جئن من بطون النساء الرومانيات اللواتي سباهن العرب عند دخولهم البلاد . في وجوههن انكسار ، ونظراتهن خجلى بلا حول أو قوة ، لسبب غير مفهوم ، ورغم جمالهن كن يحملن التعبير ذاته الذي ألاحظه على وجوه النساء في مصر. "سبحان الله" ، قلت لنفسي وأنا أتأمل واحدة كأنها نسخة ، الخالق الناطق ، من عمتي إنصاف ، يرحمها الله .

لم أشتر شيئًا يذكر ، سوى بساط ملوّن بزخارف بدوية لا تزيد مساحته عن متر مربع تقريبًا ، أما نيللي فقد اشترت سجادتين كبيرتين ، اتفقت مع صاحب المحلّ أن يرسلهما إلى المطار لتأخذهما معها عند سفرها إلى القاهرة .

لم يتحمّس الجميع للبقاء في هذه المدينة فترة أطول . فقررنا العودة قبل الغروب إلى المدينة التي جئنا منها ، حتى نحزم حقائبنا ونستريح قبل مغادرتها في صباح اليوم التالي وكنت بلا شكّ ، متحمّسة أكثر من الجميع لهذه الفكرة . كنت آمل في رؤية يوسف مرة أخرى .

يــومَ أهــونُ

١

فَتَحَتْ عينيها قبل الفجر بقليل ، بعد أن نامت نومًا قلقًا متقطّعًا زارتها خلاله أحلام وكوابيس غريبة : "جدّتها تمزّق أصابع يدها بسكين، وهي تتفرج على فيلم "لتوم و جيري" في التلفزيون . زوجها يقول لها إنه سيحضر مساءً ومعه رجل سوف يشم صدرها بوشم مسجّل به كل ما كتب في الأوراق الطبية التي عثرت عليها بدرج مكتبه ، والتي عرفت منها أنه كان مريضًا مرضًا خطيرًا لا شفاء منه . هي ويوسف في مخاضة ضحلة واسعة من الماء الآسن العفن يتحركان بصعوبة وهو أمامها يحاول الخروج منها ، ويمدّ يده لها ليساعدها على المشي وعدم التعثر والوقوع فيها ، لكنها لا تفلح في الامساك بيده ، فتراه يبتعد عنها شيئًا فشيئًا ، ولا يردّ عليها عندما تناديه وترجوه أن ينتظرها ، وكأنّه لا يسمعها أو يأبه لها" . أشعلت ضوء المصباح المثبت على الحائط أعلى سريرها ، ونظرت إلى ساعة معصمها ، ثم أطفأت الضوء بسرعة لئلا تزعج صالح ، الذي كان يغطّ في نوم عميق وقد لانت قسمات وجهه ، فبدت لها طيّبة ، عذبة ، صادقة ، بريئة إلى حدّ لا يوصف . الساعة لم

تبلغ الخامسة بعد ، لكنّها لا تريد مواصلة النوم ، لا تريد المزيد من الأحلام والكوابيس صدرها منقبض ، وأعصابها مشدودة ، والقلق يفترسها ، تذكّرت أنه لم يبق على موعد السفر ومغادرة البلاد إلا ساعات قليلة ، وهي لا تدري إن كانت الظروف ستجود عليها برؤية يوسف مرة أخرى قبل سفرها أم لا ؟.

أزاحت الغطاء عنها وقامت متسللة إلى الحمّام ؛ جلست على المرحاض، بعد أن حملت مجلّة من المجلاّت التي يأتي بها صالح كلما عاد من المؤتمر ، وبدأت تتصفحها ؛ أخذت تقلّب في الصفحات وتقرأ : "زوجة الرئيس ومشروع خيري جديد" ، "آلاف الأطفال يموتون من الجوع في الصومال بمعدل اثنين وعشرين طفلاً كل ساعتين" ، "لماذا يتزوج الرجال؟" "غراميات الأسرة المالكة الإنجليزية" . "طريقة جديدة للحميّة وإنقاص الوزن" . ظلّت تقلّب الصفحات ، وتتفحّص عناوين الموضوعات المكتوبة المصوّرة ، دون أن تجد رغبة حقيقية في قراءة أيّ منها . ألقت بالمجلّة جانبًا ، وشدّت شلاّل الماء ، ثم قامت إلى المغسلة، وقبل أن تفتح الصنبور لتغسل وجهها وتنظف أسنانها لاحظت في المرآة التجاعيد القليلة المرتسمة حول عينيها وشفتيها ، تجاعيد لا تُلحظ كثيرًا ، لكنّها موجودة تكثر وتتأكد .

سألت نفسها كم بقي لها من عمر ؟ كم ستعيش من السنين بعد الآن؟، عشر سنوات ؟ عشرين سنة ؟ سألت نفسها أيضًا كم سنة عاشتها بالفعل في حياتها ؟ كم سنة من الحياة السعيدة الحقيقية المفعمة بالراحة والاطمئنان ؟ فكّرت ، واكتشفت أنّها لم تعش حياتها أبدًا ،

عمرها ضاع وأيامها مضت بلا طعم ، بلا فرح ، بلا معنى .

داخلها يأس ، وعادت تسأل نفسها : "لماذا عندما يأتيني الفرح لا أفرح ، لماذا أخاف الفرح ؟! ، أخاف يوسف ، الصدق الوحيد في حياتي؟! لماذا أحسب حسابًا للدكتور إبراهيم ونيللي ؟ ، بينما أنا لا أطيق نيللي، ولا فتاويها ؟ لماذا لا أواجهها وأقول لها صراحة : "أنتِ غير محتملة يا نيللي . أنت شخصية لا تطاق" ؟ كلام يوسف مقنع جدًا ؛ أنا فعلاً في الشرنقة ، وكل إنسان يعيش في شرنقته ، شرنقة الأكاذيب والأوهام عن نفسه ، وعن الحياة" . "لكن كلام يوسف الجميل . مجرّد كلام ؛ أفكار رائعة ، لكنها مجرّد أفكار ؛ الواقع مسألة مختلفة ، والحياة أعقد مما يظن يوسف . لوقلت لصالح أنني أحب يوسف وأريد أن أعيش معه ما تبقّى لي من العمر ، وأريد الخروج من الشرنقة ماذا سيجيبني ؟. لوقلت لنيللي : يا نيللي اخرجي من شرنقتك السخيفة، وكُفّي عن الادعاءات والافتعال ؛ ماذا ستقول لي ؟ . لن يفهم الناس نظريّة يوسف لكن لماذا فهمتها أنا ، الأني أحبه ، أعشقه ؟!" .

بدأ نور الفجر بالظهور ، وأخذ فتل البلبل ينساب في أذنيها ناعمًا ، ساحرًا ، آسرًا ، ليس كمثله صوت في البداعة والجمال حضرها وجه يوسف الجميل ؛ خرجت من الحمام وفتحت شبّاك الغرفة ، ووقفت تتنسّم نسمات الصباح الأولى ، وتنظر إلى الحديقة .

٢

نَزَلْتُ مع صالح لتناول الفطور ، بعد أن انتهيت من إعداد كل شيء تقريبًا استعدادًا للسفر . وجدنا نيللي وزوجها قد سبقانا إلى المطعم ، فانضممنا إليهما . جاء يوسف بالشاي والقهوة بلا تعبير على وجهه تقريبًا ، بدا شاحبًا إلى حدّ ما ، لم ينظر إليّ وكأنني غير موجودة ، كان منصرفًا إلى عمله بهمّة وجدّ . تناديه الفتاة الأجنبية ذات الشعر البنفسجي ، الجالسة الآن وحيدة دون رفيقها ، الذي اعتادت تناول الطعام معه، تضحك ، يبتسم يوسف وهو يفرد كفّه لها ، فتمسكه بيدها، وتحدّق فيه بإمعان تارة ، وفي عينيه تارة أخرى ، وتكلّمه بجدّية شديدة ، يسحب كفّه من بين أناملها ، ويبتسم برقّة ثم يمضي .

تقتي نيللي التي كانت تتابع المشهد مع الجميع :

– أظرف شيء في الجماعة الأجانب أن تصرفاتهم في منتهى التلقائية والبساطة ، وبدون عُقد .. أما عندنا ، فتصرفاتنا محسوبة ومحبوكة ، ونادرًا ما نتصرّف على سجيّتنا ؛ تربيتنا مختلفة جدًا عنهم .

اغتظت جدًا من كلام نيللي ، أتمنى أن نسافر بسرعة ، أن أغمض

عينيّ وأفتحهما فلا أجد نيللي أمامي ، أشفق على ابني لأنّ هذه المرأة يمكن أن تصبح حماته ـ ذات يوم ـ أدعو الله ألا تكون ابنتها مثلها ، وألا تكون لها الشخصية ذاتها .

قررت ألا أصعد بعد الإفطار إلى الحجرة مرّة أخرى ، فلا شيء لي فيها سوى الحقائب التي يمكن أن يأتي عامل الخدمة بها عندما يحين وقت مغادرتنا الفندق ، وكلّ شيء يخصّني من أوراق في حقيبة يدي ، جواز سفري والتذكرة . أدخّن بعصبية وأنا أرتشف قهوتي ، أفكّر في يوسف وأصمّ السمع عن سخافات نيللي ، التي تعلن أخيراً أنها ذاهبة لحجرتها لتستكمل ترتيب الحقائب، فيطالبها صالح بالإسراع في ذلك حتى لا نتأخر عند قدوم السيارة التي ستقلّنا إلى المطار .

أتمنّى حدوث معجزة كيلا أسافر ، أن تنشقّ الأرض وتبتلع الجميع وأظلّ وحدي مع يوسف ، أن تواتيني شجاعة تهبط عليّ من السماء ، أو يباغتني جنون مفاجىء فأعلن للجميع أنني لن أغادر معهم ، وسأبقى هنا لأتزوج يوسف، أن أضع عينيّ في عينيّ صالح دون أن يرفّ لي رمش ، وأقول له : "أنت كبرت يا حبيبي ، ولن تحتاجني بعد الآن ، فاتركني لأعيش حياتي وأرتبط بيوسف".

"طبعًا لن تفعلي ذلك يا هاجر لأنك جبانة ، حمارة . خلّيكِ إذن طوال عمرك في الشرنقة ، خلّيكِ مدفونة بالحياة ، ضعيفة ، عاجزة عن إحداث ثقب صغير في شرنقة الحرير ، والطيران بعيدًا عن الأوهام ، بعيدًا في العالم الأرحب" .

"لا .. سأظل هنا ، وليكن ما يكون ، سأكون شجاعة ولن أسافر" لا ..

مستحيل البقاء ، مستحيل أن أفقد عقلي واتّزاني . نزوة وتروح لحال سبيلها . لست أوّل ولا آخر النساء اللواتي عشن تجربة من هذا النوع . آلاف النساء مثلك يا بنت يولدن ويمتن دون الدخول في تجربة مثيرة ورائعة من هذا النوع ، تجربة مع رجل رائع تتمناه النساء بالأغلبيّة المطلقة . الآن فقط بعد خوض هذه التجربة ، ومعايشة هذه المشاعر الجارفة ، عرفت كم كانت زليخة معذورة ! مسكينة زليخة ، مظلومة ، لأنّ أحداً لم يقدّر مدى معاناتها ، أو يدرك حقيقة عذاباتها "

ابتسمت وأنا أتخيّل ردّ الفعل لو حكيت لأي زميلة من زميلاتي في شركة المعادن عن حكايتي مع يوسف . يكفيني شرف المحاولة ، محاولة الفكاك من الشرنقة ، وخوض تجربة من هذا النوع ، لا أعرف كيف واتتني الشجاعة وجرؤت على دخولها مع أروع رجل عرفته في حياتي .

لكنّي أحبّ يوسف ، أعشقه ، وهذه هي مشكلتي الحقيقية ، فأنا لم أدخل في نزوة عابرة معه صحيح أنّي لم أحسب نتائج ما فعلته ، لكنني كنت جادّة ، لم أكن عابثة ترغب في قضاء وقت ممتع والسلام . أشعر باحتياج حقيقي إلى يوسف يجعلني لا أعرف ماذا أفعل بدونه .

ذهبت إلى صالة الاستقبال وصعد صالح إلى الحجرة ليكتب خطاباً إلى زميل له في المؤتمر ويتركه له في الفندق قبل المغادرة . سنسافر بعد حوالي ساعة من الآن بالضبط . سأموت من الحسرة . دخل يوسف الصالة مرّتين ، مرّة ليتحدّث مع موظف الاستقبال في أمر ما ، ومرّة ليأتيني بالشاي الذي طلبته منه عند دخوله في المرّة الأولى ، كنت جالسة في ركن الصالة البعيد عن موظف الاستقبال ، لم أتمالك نفسي عندما

مضى فناديته وأنا أنظر إليه باسترحام :

– يوسف . ولم أتفوه بشيء آخر غير ذلك .

مضى مسرعًا ، وسمعت الباب الزجاجي للاستقبال وهو يفتح ويغلق بعنف ، لم أشرب الشاي ، بقيت متسمّرة في مكاني ورأسي يغلي بالأفكار، "سأبقى ، لابدّ أن أبقى ، هذه فرصتي الوحيدة ، هذه فرصتي الأخيرة . لكن هبي يا بنت أنّه كذّاب أو العبان لن يجرّ عليك إلا الضياع والوحل ، هبي أنك اكتشفت بعد البقاء معه عكس ما توقّعت ؛ ماذا أنت فاعلة بعد تقطيع علاقاتك بابنك وبعالمك كله ؟!

وهل تظنّين أن صالحًا سيدع الأمر يمرّ ببساطة ، أليس من المحتمل أن يحجر عليك بتهمة العتّه والجنون ؟ اعقلي واستعيذي بالله من الشيطان الرجيم . لا .. لا .."

وجدتني أنهض فجاة ، أندفع كالمجنونة مغادرة المكان ، حتى أنّ موظف الاستقبال رفع رأسه عن الأوراق التي أمامه مندهشًا ، جريت أصعد السلالم إلى حجرتي ، دفعت الباب ودخلت ، وجدت صالحًا في الحمّام ، عندما خرج قلت له بسرعة :

– صالح .. لن أسافر معك .

نظر إلي جازعًا وقال :

– مالك يا ماما ! شكلك متغيّر ! هل حصل لك شيء ؟

– صالح .. أنا قررت أن أتزوج .

بدا غير مصدق لما أقول ، بل ظن أنني جننت ، فقال :

– ماما .. هذا كلام غريب جدًا منك ! ، متى قررت ذلك ؟ ستتزوجين

بمَنْ ؟

– صالح .. لا تناقشني الآن ، أرجوك ، سأكتب لك خطابًا مفصلاً عن كلّ شيء ،

امتقع وجهه وأخذ يرتعش وهو يقول :

– ستتزوجين بمَنْ يا ماما ، قولي مِنْ فضلك ،

– يوسف يا صالح ،

– يوسف .. مَنْ يوسف ؟!

– الذي تصورْتَ معه اليوم يا صالح ،

– الجرسون ..؟! مستحيل .. أنت جننت يا ماما ؟! ، عقلك طار ؟!. مستحيل .!

– صالح لا مناقشة الآن ، الوقت يمرّ بسرعة ، خلّنا في العملي ، طبعًا نيللي وزوجها سيفاجآن بالخبر ، لا تقل لهما شيئًا عن الموضوع أخبرهما أنني اكتشفت بالصدفة وجود أقارب لنا يعيشون في هذه المدينة، وأنّهم عرفوا بوجودي فكلّموني بالهاتف وأصرّوا على أن أبقى معهم أسبوعًا آخر ،

وقف كمن لا يصدّق ، أخذ يحدّق فيّ ، تحشرج صوته وشعرت بجفاف حلقه وهو يقول :

– مستحيل يا ماما .. أنت لا تتكلمين بجدّ ، فكّر في نيللي ، فكر في الدكتور إبراهيم ! أنا لايهمّني ما سأقوله لهما ، المهمّ أنت !

– أنا أحبّ يوسف يا صالح ، سأرتبط به ، سأتزوجه ، سأبقى معه ، ولن أناقش ذلك الآن ،

- متى تمّ ذلك يا ماما ، لم يمرّ علينا إلاّ أقلّ من أسبوع هنا ، مستحيل أن تقرري هذا القرار الخطير في أقلّ من أسبوع . ثم إنه جرسون ، جرسون يا ماما ، وأنت واحدة محترمة ، ومركزك محترم ، وابنك إنسان محترم ، مستحيل أن تتزلقي إلى مستوى جرسون .

- صالح ، قلت لك لا وقت للنقاش الآن . سأذهب قبل نزول نيللي وزوجها . خذ عنواني في هذه المدينة .

أخرجت قلماً وكتبت له العنوان على طرف صفحة من المجلة التي كنت أقرأها بالحمّام . أمسك المجلّة وقرأ ما كتبت وسألني :

- عنوان مَنْ هذا ؟!

- عنوان يوسف يا صالح ، راسلني عليه ، سأطلب سيارة . اتّجهت إلى الهاتف ، ورفعت السمّاعة ، اقترب مني صالح محاولاً منعي ، نظرت إليه بحدّة لمتوقّف . جلس على السرير منهاراً وبدأ يبكي ، أدرت قرص الهاتف وطلبت سيّارة أجرة أخبروني أنها ستحضر بعد خمس دقائق ، جلست إلى جوار صالح، احتضنته وبكيت ، وكنت في حالة غريبة جداً .

١٥٥

صدر للكاتبة :

- زينات في جنازة الرئيس (قصص قصيرة) - القاهرة / ١٩٨٦.

- مقام عطية (رواية قصيرة وقصص) - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - القاهرة / ١٩٨٦.

- عن الروح التى سرقت تدريجيا (قصص قصيرة) - مصرية للنشر والتوزيع - القاهرة / ١٩٨٩.

- العربة الذهبية لاتصعد إلى السماء (رواية) سينا للنشر - القاهرة/ ١٩٩١.

- عجين الفلاحة (قصص) سينا للنشر - القاهرة / ١٩٩٢.

أعمال مترجمة إلى الإنجليزية :

* **The Wiles of Men and other stories**

  Translated by Denys Johnson - Davies

  QARTET BOOKS - LONDON 1992

* **Such a Beautiful Voice**

  Translated by Hoda EL Sada

  Cairo, GBO, 1992

  وتصدر قريباً روايتها العربة الذهبية لاتصعد إلى السماء

أعمال مترجمة إلى الألمانية :

* ATIJAS SCHREIN
* Herausgeben Von Hartmut Fähndrich

  LENOS Verlag, Basl - 1992

٩٢/٩٧٩٩

I. S. B. N 977 - 5140 - 38 -2

دار الطباعة المتميزة

ت ٩١١٢٠٤٢

وصف البلبل

فتشت بعينيها أكثر، علها تجد البلبل الذي طالما تمنت رؤيته، تفحصت بنظراتها شجرتي الكينا الباديتين أمامها من خلف الزجاج، لكن لا فائدة، كل الطيور تتشابه، لا اختلاف يذكر بينها وهي واقفة على الأغصان، طيور سوداء لها مناقير حمراء، وطيور باهتة الألوان كالتي تراها في كل حين ببلدها؛ ثم فجأة ارتسمت في مخيلتها صورة وجه كاملة، الشعر الفاحم المسترسل والعينين الواسعتين المبحرتين في غسق الليل، ثم الأنف الأشم والخد الأسيل.

ضبطت نفسها متلبسة مدة أخرى بتأمل ذلك الوجه.

سينا للنشر